شوق و حنين
للصّادق الأمين

لمحات نيّرة مستقاة من
السّيرة النّبويّة الشّريفة
للأطفال

تأليف:
أسامة صفراوي

مصنّفات أخرى للمؤلّف:

قصص مهارات الحياة (مجموعة قصصيّة للأطفال)

المرايا والماء (قصّة قصيرة للنّاشئة)

جميع الحقوق محفوظة للمؤلّف

ر د م ك: 0 – 520 – 40 – 9938 – 978

نسخة منقّحة

- مقدّمة المؤلّف -

بسم الله والحمد لله والصّلاة والسّلام على رسول الله،

قرّرت أن أكتب السّيرة النّبويّة للأطفال بأسلوب إبداعي. والحقيقة أنّني لم أتعب كثيرا في التّأليف لأنّ سيرة الحبيب المصطفى ﷺ مخدومة بشكل ضاف وواف وشاف وكاف. وما قمت به أنّني انتقيت ما ثبت من المواقف النّبوية العظيمة وما صحّ من الأحاديث النّبويّة الشّريفة المتوافقة مع كلّ خلق، ثمّ بوّبت فصول الكتاب ورتّبتها حسب ما بدا لي أنّه التّرتيب الأنسب في أهمّيّة الأخلاق وتأثيرها الإيجابيّ في الفرد والمجتمع، وصغت ذلك في شكل قصصيّ ممتع وجذّاب للأطفال.

وقد أوردت ما صحّ وثبت من المواقف النّبويّة الشّريفة، واستبعدت الكثير من المواقف الّتي لم تثبت. أمّا قصّة شاس بن قيس والفتنة بين الأوس والخزرج والتّعامل النّبويّ الحكيم معها، فقد أوردتها رغم ضعف ثبوتها لما فيها من دروس اجتماعيّة وتربويّة جليلة.

أرجو من الله أن يلقى الكتاب القبول الحسن، وأن يكون له تأثير إيجابي في بناء شخصيّة أبنائنا وغرس حبّهم لنبيّ الرّحمة ﷺ. كما أسأله الثّبات والإخلاص في القول والعمل، وأن يجمعني بالصّادق الأمين ﷺ في الفردوس الأعلى من الجنّة.

"وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا، مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا"

النّساء (79، 80)

كُلُّ الْقُلُوبِ إِلَى الْحَبِيبِ تَـمِيـلُ - - وَمَعِي بِهَذَا شَـاهِدٌ وَدَلِيــلُ

أَمَّا الدَّلِيلُ إِذَا ذَكَـرْتَ مُحَمَّدًا - - صَارَتْ دُمُوعُ الْعَارِفِينَ تَسِيلُ

هَذَا رَسُولُ اللهِ نِــبْرَاسُ الْهُدَى - - هَذَا لِكُلِّ الْعَــالَمِينَ رَسُولُ

صَلَّى عَلَيْكَ اللهُ يَـا عَلَمَ الْهُدَى - - مَا حَنَّ مُشْتَـاقٌ وَسَارَ دَلِيلُ

نبذة

حوار بين الجدّ الحكيم جمال وحفيده النّبيه عبد الرّحمان،

يحكي الجدّ مواقف خالدة من سيرة الصّادق الأمين ﷺ

ويستخلص الحفيد بعض الاستنتاجات المفيدة.

مقدّمة

مَسَاءَ الْجُمُعَةِ، عُدْتُ مَعَ أَبِي مِنَ الْجَامِعِ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ. دَخَلْنَا غُرْفَةَ الْجُلُوسِ، فَوَجَدْنَا جَدِّي جمال يَقْرَأُ كِتَابًا مُجَلَّدًا بِاهْتِمَامٍ. قَبَّلَ أَبِي رَأْسَ جَدِّي، وَجَلَسَ بِجَانِبِهِ وَهْوَ يَسْأَلُهُ عَنْ أَحْوَالِهِ. ثُمَّ سَلَّمْتُ عَلَى جَدِّي بِفَرَحٍ، وَكُنْتُ أُحِبُّهُ كَثِيرًا فَهْوَ طَيِّبٌ حَكِيمٌ وَالْابْتِسَامَةُ لَا تُفَارِقُ وَجْهَهُ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُمَتِّعُنَا بِحِكَايَاتِهِ الْجَمِيلَةِ ذَاتِ الْعِبَرِ الْوَفِيرَةِ. ثُمَّ دَفَعَنِي حُبُّ الْاِطِّلَاعِ لِمَعْرِفَةِ عُنْوَانِ الْكِتَابِ الَّذِي يَقْرَؤُهُ، فَتَسَاءَلْتُ:

– مَا عُنْوَانُ الْكِتَابِ يَا جَدِّي؟ وَمَا مَوْضُوعُهُ؟

فَأَجَابَنِي مُبْتَسِمًا:

– عُنْوَانُ الْكِتَابِ رِيَاضُ الصَّالِحِينَ. إِنَّهُ كِتَابٌ يَحْتَوِي آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَأَحَادِيثَ نَبَوِيَّةً شَرِيفَةً لِلرَّسُولِ ﷺ.

ثُمَّ سَأَلَنِي قَائِلًا:

– مَاذَا تَعْرِفُ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ يَا عَبْدَ الرَّحْمَانِ؟

فَأَجَبْتُ:

– أَعْرِفُ أَنَّهُ كُلَّمَا يُذْكَرُ يَجِبُ أَنْ أَقُولَ ﷺ.

فَقَالَ جَدِّي:

– وَهَلْ تُحِبُّهُ؟

أَجَبْتُ مُحْتَارًا:

– كَيْفَ أُحِبُّهُ وَأَنَا لَا أَعْرِفُ عَنْهُ شَيْئًا؟

فَتَدَخَّلَ أَبِي مُلَاحِظًا:

– هَلْ تَعْلَمُ يَا بُنَيَّ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ لَطِيفًا مَعَ الْأَطْفَالِ، عَطُوفًا عَلَيْهِمْ، رَحِيمًا بِهِمْ، نَاصِحًا لَهُمْ؟ وَكَانَ يُعَامِلُهُمْ بِالرِّفْقِ وَاللِّينِ وَيَغْمُرُهُمْ بِالْوُدِّ وَالْحَنَانِ.

فَقَدْ كَانَ طِفْلٌ صَغِيرٌ يُسَمَّى أَبَا عُمَيْر، يُرَبِّي عُصْفُورًا اسْمُهُ النُّغَيْر. فَمَرِضَ الْعُصْفُورُ النُّغَيْر وَمَاتَ. فَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُلَاطِفُ الطِّفْلَ الصَّغِيرَ وَيَقُولُ لَهُ مُوَاسِيًا: يَا أَبَا عُمَيْر، مَا فَعَلَ النُّغَيْر؟!

وَذَاتَ يَوْمٍ، خَرَجَ الرَّسُولُ ﷺ لِيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ حَامِلًا حَفِيدَهُ الطِّفْلَ الصَّغِيرَ الْحَسَنَ أَوْ الْحُسَيْنَ. فَتَقَدَّمَ ﷺ وَوَضَعَهُ بِجَانِبِهِ وَكَبَّرَ لِلصَّلَاةِ. فَلَمَّا سَجَدَ ﷺ صَعِدَ حَفِيدُهُ الصَّغِيرُ عَلَى ظَهْرِهِ، فَمَكَثَ الرَّسُولُ ﷺ وَأَطَالَ سُجُودَهُ كَيْ لَا يُفْسِدَ عَلَيْهِ لَعِبَهُ، فَلَمَّا قَضَى ﷺ الصَّلَاةَ، تَعَجَّبَ النَّاسُ مِنْ إِطَالَةِ سُجُودِهِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ سَجَدْتَ فِي صَلَاتِكَ سَجْدَةً أَطَلْتَهَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ، أَوْ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ! فَقَالَ ﷺ: كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي، فَكَرِهْتُ أَنْ أُعْجِلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ.

وَكَانَتْ لِلرَّسُولِ ﷺ حَفِيدَةٌ يَتِيمَةٌ اسْمُهَا أُمامة، فَكَانَ ﷺ يُلَاطِفُ أُمامة الصَّغِيرَةَ وَيَعْطِفُ عَلَيْهَا، فَيَحْمِلُهَا وَهْوَ فِي الصَّلَاةِ، فَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا عَلَى الْأَرْضِ، وَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا عَلَى كَتِفِهِ.

وَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَهْتَمُّ بِالْأَطْفَالِ وَيُشَجِّعُهُمْ. وَمِنَ الْأَطْفَالِ الْأَذْكِيَاءِ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ الطِّفْلُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاس. وَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ فِي مَجْلِسٍ، عَنْ يَمِينِهِ الطِّفْلُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاس وَعَنْ يَسَارِهِ الْأَشْيَاخُ. فَجِيءَ لِلرَّسُولِ ﷺ بِلَبَنٍ فِي قَدَحٍ، فَسَمَّى اللهَ وَشَرِبَ مِنْهُ وَحَمِدَ اللهَ، ثُمَّ قَالَ لِعَبْدِ اللهِ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ؟ فَأَجَابَ الطِّفْلُ بِشَجَاعَةٍ وَأَدَبٍ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ لَا أُوثِرُ بِنَصِيبِي مِنْكَ أَحَدًا. فَوَضَعَ الرَّسُولُ ﷺ الْقَدَحَ فِي يَدِهِ وَقَدَّمَهُ عَلَى الْأَشْيَاخِ.

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ لِي: يَا غُلَام، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ. اِحْفَظْ اللهَ يَحْفَظْكَ، اِحْفَظْ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ. إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ. رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ.

وَقَدْ دَعَا لَهُ الرَّسُولُ ﷺ بِالتَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ، فَكَبُرَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِيُصْبِحَ أَعْلَمَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ وَحَبْرَ الْأُمَّةِ وَتُرْجُمَانَ الْقُرْآنِ.

اِسْتَمَعْتُ بِانْتِبَاهٍ، وَقَدْ انْطَبَعَ حَدِيثُ أَبِي فِي ذِهْنِي، وَدَخَلَ حُبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى قَلْبِي.

ثُمَّ قَالَ جَدِّي مُبْتَسِمًا:

– مَا رَأْيُكَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَانِ أَنْ نُخَصِّصَ مَسَاءَ كُلِّ يَوْمِ جُمُعَةٍ لِأَقُصَّ لَكَ بَعْضَ الْمَوَاقِفِ الْعَظِيمَةِ مِنْ سِيرَةِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم؟

أَجَبْتُ مُبْتَهِجًا:

– طَبْعًا يَا جَدِّي! يَسُرُّنِي ذَلِكَ كَثِيرًا!

مَسَحَ جَدِّي جمال عَلَى رَأْسِي قَائِلًا:

– اِتَّفَقْنَا إِذَنْ يَا بُنَيَّ.

تَبَادَلَ أَبِي وَجَدِّي نَظْرَةً رَاضِيَةً وَابْتَسَمَا بِحُنُوٍّ، أَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَنْتَظِرُ بِفَارِغِ الصَّبْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ الْقَادِمَ لِأَتَعَلَّمَ سِيرَةَ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم.

* * * * *

التّواضع والصّدق والأمانة

فِي الْأُسْبُوعِ الْمُوَالِي، جَلَسْتُ مَعَ جَدِّي جمال فِي شُرْفَةِ مَنْزِلِنَا الْمُطِلَّةِ عَلَى حَدِيقَةٍ فَسِيحَةٍ خَضْرَاءَ تُزَيِّنُهَا أَشْجَارٌ بَاسِقَةٌ وَأَزْهَارٌ يَانِعَةٌ.

قَالَ جَدِّي:

– مَا رَأْيُكَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَانِ أَنْ نَبْدَأَ بِذِكْرِ نَسَبِ الرَّسُولِ مُحَمَّد ﷺ، وَنَبْذَةٍ سَرِيعَةٍ عَنْ سِيرَتِهِ الشَّرِيفَةِ؟

أَوْمَأْتُ بِرَأْسِي مُوَافِقًا، فَسَكَتَ جَدِّي هُنَيْهَةً، ثُمَّ قَالَ:

– لَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ عَدَدًا كَثِيرًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ يُرْشِدُونَ النَّاسَ إِلَى خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. مِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ الرُّسُلِ نوح الصَّبُورُ الشَّكُورُ، وَابراهيم خَلِيلُ اللهِ وَأَبُو الْأَنْبِيَاءِ، وَموسى كَلِيمُ اللهِ، وَعيسى الْمُبَارَكُ، عَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَالرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، أَرْسَلَهُ اللهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ. وَمِنْ أَسْمَائِهِ ﷺ: أحمد، الْعَاقِبُ، الْمُقَفِّي، الْمُبَشِّرُ، النَّذِيرُ، السِّرَاجُ الْمُنِيرُ. وُلِدَ ﷺ فِي أُمِّ الْقُرَى مَكَّةَ الْمُكَرَّمَة، فِي الْعَامِ الَّذِي حَاوَلَ أبرهة صَاحِبُ الْفِيلِ هَدْمَ الْكَعْبَةِ فَخَابَ سَعْيُهُ وَضَلَّ، وَسُمِّيَ ذَلِكَ الْعَامُ بِعَامِ الْفِيلِ. وَيَنْتَمِي ﷺ إِلَى قَبِيلَةِ قُرَيْش، وَهُوَ مُحَمَّد بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِم، وَأُمُّهُ آمنةُ بِنْتُ وَهْبٍ، وَيَعُودُ نَسَبُهُ ﷺ إِلَى عدنان بْنِ اسماعيل بْنِ ابراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. وَقَدْ تُوُفِّيَ

عَبْدُ اللهِ وَالِدُ الرَّسُولِ ﷺ قَبْلَ وِلَادَتِهِ. وَتَرَبَّى ﷺ فِي الْبَادِيَةِ عِنْدَ بَنِي سَعْدٍ حَيْثُ ظَهَرَتْ دَلَائِلُ بَرَكَتِهِ ﷺ وَحَيْثُ نَزَلَ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فَشَقَّ صَدْرَهُ وَطَهَّرَ قَلْبَهُ. ثُمَّ تُوُفِّيَتْ أُمُّهُ وَعُمُرُهُ سِتُّ سَنَوَاتٍ، فَتَرَبَّى عِنْدَ جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ حَتَّى تُوُفِّيَ جَدُّهُ وَعُمُرُهُ ثَمَانُ سَنَوَاتٍ، فَتَرَبَّى عِنْدَ عَمِّهِ أَبِي طَالِب. وَعَمِلَ ﷺ طِفْلًا فِي رَعْيِ الْغَنَمِ، ثُمَّ شَابًّا فِي التِّجَارَةِ. وَقَدْ شَبَّ الرَّسُولُ ﷺ عَفِيفًا كَرِيمَ الْأَخْلَاقِ، وَتَاجَرَ فِي مَالِ السَّيِّدَةِ خَدِيجَة بِنْتِ خُوَيْلِد رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وَتَزَوَّجَهَا، وَرُزِقَ مِنْهَا جَمِيعَ بَنِيهِ وَبَنَاتِهِ بِاسْتِثْنَاءِ ابراهيم. وَفِي سِنِّ الْأَرْبَعِينَ، نَزَلَ عَلَيْهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْوَحْيِ فِي غَارِ حِرَاء. فَقَضَّى الرَّسُولُ ﷺ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً فِي مَكَّةَ يَدْعُو إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ، لَكِنْ قَابَلَتْ قُرَيْشُ دَعْوَتَهُ بِالرَّفْضِ وَالْإِيذَاءِ، فَبَعَثَ الرَّسُولُ ﷺ مَجْمُوعَةً مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى بِلَادِ الْحَبَشَةِ. وَلَمَّا اشْتَدَّ الْإِيذَاءُ بِهِ ﷺ وَبِالْمُسْلِمِينَ، أَسْرَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ ﷺ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَأَعْرَجَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى لِيَعْلَمَ ﷺ رِفْعَةَ مَقَامِهِ عِنْدَ رَبِّهِ. ثُمَّ أَذِنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ بِالْهِجْرَةِ إِلَى يَثرب الْمَدِينَةِ مَعَ أَصْحَابِهِ، فَأَسَّسَ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ دَوْلَةَ الْإِسْلَامِ، وَأَقَامَ فِيهَا عَشْرَ سَنَوَاتٍ تَخَلَّلَتْهَا مُوَاجَهَاتٌ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُسْلِمِينَ عُرِفَتْ بِالْغَزَوَاتِ، ثُمَّ فَتَحَ الرَّسُولُ ﷺ مَكَّةَ فَتْحًا مُبِينًا، وَتُوُفِّيَ وَدُفِنَ بِالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ. قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ

رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ.

اِنْبَهَرْتُ وَقُلْتُ مُسْتَنْتِجًا:

– إِذَنْ فَالْيُتْمُ لَيْسَ نَقْصًا وَلَا عَيْبًا، بَلْ إِنَّ الطِّفْلَ الْيَتِيمَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُصْبِحَ إِنْسَانًا عَظِيمًا فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ.

أَجَابَ جَدِّي مُبْتَسِمًا:

– بَلَى يَا بُنَيَّ، كَمْ مِنْ يَتِيمٍ مَحْرُومٍ نَشَأَ وَشَبَّ لِيُصْبِحَ عَظِيمًا مِنْ عُظَمَاءِ التَّارِيخِ مِثْلَ نَبِيِّ اللهِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْإِمَامِ الْفَقِيهِ الْأَوْزَاعِي إِمَامُ الْعَيْشِ الْمُشْتَرَكِ، وَالْقَاضِي أَبِي يُوسف قَاضِي الْقُضَاةِ. وَفِي التَّارِيخِ الْحَدِيثِ نَجِدُ أَيْتَامًا عُظَمَاءَ مِثْلَ مالكوم اكس الْمُنَاضِلُ مِنْ أَجْلِ حُقُوقِ السُّودِ، وَنلسون مانديلّا الْمُنَاضِلُ فِي سَبِيلِ حُقُوقِ الْإِنْسَانِ، وَليو تولستوي الْأَدِيبُ صَاحِبُ الْحِكْمَةِ، وبيتر لينش الثَّرِيُّ صَاحِبُ الْأَعْمَالِ الْخَيْرِيَّةِ.

تَسَاءَلْتُ:

– حَسَنًا يَا جَدِّي. وَإِلَامَ دَعَا الرَّسُولُ ﷺ النَّاسَ؟

أَجَابَ جَدِّي:

– لَقَدْ دَعَا الرَّسُولُ ﷺ النَّاسَ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. وَدَعَا إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَصَوْمِ شَهْرِ

رمضان وَالْحَجِّ إِلَى الْبَيْتِ لِمَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. كَمَا دَعَا ﷺ إِلَى التَّحَلِّي بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، فَقَدْ قَالَ: إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ.

وَمِنْ أَرْوَعِ مَا قِيلَ فِي فَضَائِلِ الْإِسْلَامِ وَمَحَامِدِهِ قَوْلُ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ جعفر بْنِ أَبِي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِلنَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ إِذْ يَعْرِضُ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ، قَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجِوَارَ وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ. فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ تَعَالَى لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ.

اِسْتَمَعْتُ بِانْتِبَاهٍ، ثُمَّ قُلْتُ مُنْبَهِرًا:

– إِنَّ الْإِسْلَامَ حَقًّا دِينُ الْفَضَائِلِ وَالْمَحَامِدِ. أَخْبِرْنِي يَا جَدِّي عَنْ صِفَاتِ الرَّسُولِ ﷺ؟

أَطْرَقَ جَدِّي جمال مُفَكِّرًا بِضْعَ لَحَظَاتٍ، ثُمَّ اسْتَوَى قَائِلًا:

– كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ طَلْقَ الْوَجْهِ بَسَّامًا، صَادِقَ الْعَهْدِ صَدُوقًا، لَيِّنَ الْجَانِبِ حَلِيمًا، رَحْبَ الصَّدْرِ مُنْصِفًا، هَادِئًا وَقُورًا، حَيِيًّا صَبُورًا، قَنُوعًا كَرِيمًا، شُجَاعًا حَكِيمًا، رَفِيقًا رَحِيمًا. وَكَانَ ﷺ مُتَوَاضِعًا مُتَفَائِلًا صَافِيَ الرُّوحِ

مُطْمَئِنَّ النَّفْسِ سَلِيمَ الْقَلْبِ نَيِّرَ الْعَقْلِ نَافِذَ الْبَصِيرَةِ، يَرْجُو الْخَيْرَ لِكُلِّ النَّاسِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي وَصْفِهِ: "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ" (القلم 4) وَقَالَ ﷺ: أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي.

اِسْتَمَعْتُ مُنْبَهِرًا وَكَأَنَّ عَلَى رَأْسِي الطَّيْرُ. ثُمَّ قُلْتُ:

– هَلَّا حَدَّثْتَنِي يَا جَدِّي عَنْ تَوَاضُعِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟

– يَا عَبْدَ الرَّحْمَانِ، إِنَّ التَّوَاضُعَ مِنَ الْأَخْلَاقِ النَّبِيلَةِ الْأَسَاسِيَّةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَتَحَلَّى بِهَا كُلُّ إِنْسَانٍ. قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: "وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا" (الفرقان 63)

وَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ. فَقِيلَ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. فَقَالَ ﷺ: إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ. وَبَطَرُ الْحَقِّ يَعْنِي عَدَمَ قَبُولِ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ يَعْنِي احْتِقَارَهُمْ.

قُلْتُ مُلَاحِظًا:

– إِذَنْ فَالتَّوَاضُعُ هُوَ أَنْ أَتَقَبَّلَ الْحَقَّ، وَأَنْ لَا أَحْقِرَ النَّاسَ. وَأَسْتَنْتِجُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ ثَرِيًّا وَلَا يَحْتَقِرُ النَّاسَ فَهُوَ مُتَوَاضِعٌ رَغْمَ ثَرَائِهِ، وَإِذَا كَانَ فَقِيرًا وَاحْتَقَرَ النَّاسَ فَهُوَ مُتَكَبِّرٌ رَغْمَ فَقْرِهِ.

– بَلَى يَا بُنَيَّ، أَحْسَنْتَ فَهْمًا. وَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ جَمَّ التَّوَاضُعِ عَلَى رِفْعَةِ قَدْرِهِ وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِ. فَلَمْ يَكُنْ يَتَّخِذُ لِنَفْسِهِ فِي مَجْلِسِهِ عَرْشًا مَلَكِيًّا ضَخْمًا

أَوْ كُرْسِيًّا مُتَعَالِيًا فَخْمًا، وَلَمْ يَكُنْ يَلْبَسُ الثِّيَابَ الْمُنَمَّقَةَ الْمُزَيَّنَةَ أَوْ الْمَلَابِسَ الْمُزَرْكَشَةَ الثَّمِينَةَ، بَلْ كَانَ يَجْلِسُ بِبَسَاطَةٍ بَيْنَ أَصْحَابِهِ، يَلْبَسُ مِثْلَمَا يَلْبَسُونَ، وَيَأْكُلُ مِمَّا يَأْكُلُونَ. فَيَأْتِي الرَّجُلُ إِلَى مَجْلِسِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ فَلَا يَدْرِي أَيُّ الْجَالِسِينَ رَسُولُ اللهِ حَتَّى يَسْأَلَ عَنْهُ! وَكَانَ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يُحِبُّونَ الرَّسُولَ ﷺ وَإِذَا رَأَوْهُ لَمْ يَقُومُوا لَهُ لِمَا يَعْرِفُونَ مِنْ كَرَاهِيَّتِهِ لِذَلِكَ.

وَحَدَثَ أَنْ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، فَلَمَّا رَآهُ هَابَهُ وَأَخَذَتْهُ رِعْدَةٌ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُهَدِّئًا وَمُطَمْئِنًا: هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْش كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ.

وَكَانَ مِنْ تَوَاضُعِهِ ﷺ أَنَّهُ يُشَارِكُ فِي شُؤُونِ الْمَنْزِلِ، فَيَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ: يَحْلِبُ شَاتَهُ، وَيَرْقَعُ ثَوْبَهُ، وَيَخْدِمُ نَفْسَهُ، وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ. فَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ. وَكَانَ لَا يَعِيبُ طَعَامًا قَطُّ، فَإِنْ اشْتَهَى طَعَامًا أَكَلَ مِنْهُ وَإِلَّا تَرَكَهُ، يُسَمِّي اللهَ وَيَأْكُلُ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَحْمَدُ اللهَ. وَكَانَ يَعُودُ الْمَسَاكِينَ، وَيُجَالِسُ الْفُقَرَاءَ، وَيَسْتَجِيبُ لِلدَّعْوَةِ، وَيَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ مَهْمَا كَانَتْ بَسِيطَةً. قَالَ ﷺ: لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ أَوْ كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ.

هَتَفْتُ مُنْشَرِحًا:

– مَا أَرْوَعَ بَسَاطَةَ الرَّسُولِ ﷺ وَمَا أَجْمَلَ تَوَاضُعَهُ!

– نَعَمْ يَا بُنَيَّ. وَمِنَ الْأَخْلَاقِ النَّبِيلَةِ الْأَسَاسِيَّةِ الصِّدْقُ وَالْأَمَانَةُ. وَلَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُلَقَّبُ بِالصَّادِقِ الْأَمِينِ.

– مَنْ لَقَّبَهُ بِالصَّادِقِ الْأَمِينِ وَلِمَاذَا؟

– لَقَدْ لَقَّبَتْ قُرَيْش الرَّسُولَ ﷺ بِالصَّادِقِ الْأَمِينِ مُنْذُ رَيْعَانِ شَبَابِهِ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ نَبِيًّا رَسُولًا. وَسَأَبْدَأُ الْحَدِيثَ بِإِشَارَةٍ سَرِيعَةٍ إِلَى قِصَّةِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ، ثُمَّ سَأَعُودُ إِلَى هَذِهِ الْقِصَّةِ فِي قَادِمِ الْأَيَّامِ إِنْ شَاءَ اللهُ. الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ حَجَرٌ مِنَ الْجَنَّةِ، نَزَلَ بِهِ الْمَلَكُ جِبْرِيل إِلَى سَيِّدِنَا ابراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لِيَضَعَهُ فِي بِنَاءِ الْكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَةِ. وَفِي شَبَابِ الرَّسُولِ ﷺ أَصَابَ جُدْرَانَ الْكَعْبَةِ تَصَدُّعٌ، فَاجْتَمَعَ زُعَمَاءُ قُرَيْش لِتَجْدِيدِ بِنَائِهَا، وَشَارَكَتْ فِي عَمَلِيَّةِ الْبِنَاءِ كُلُّ الْقَبَائِلِ. فَلَمَّا بَلَغَ الْبُنْيَانُ مَوْضِعَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ، اِخْتَلَفَ الْقَوْمُ وَتَنَازَعُوا يُرِيدُ كُلٌّ مِنْهُمْ أَنْ يَنَالَ شَرَفَ وَضْعِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ مَوْضِعَهُ. وَاشْتَدَّ النِّزَاعُ وَكَادُوا يَتَقَاتَلُونَ، فَاقْتَرَحَ أَحَدُهُمْ أَنْ يُحَكِّمُوا فِي الْأَمْرِ مَنْ يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ فِي مَجْلِسِهِمْ، فَوَافَقُوا. فَدَخَلَ الرَّسُولُ ﷺ فَهَتَفُوا بِصَوْتٍ وَاحِدٍ مُسْتَبْشِرٍ: الْأَمِينُ ارْتَضَيْنَاهُ!

وَبَعْدَ أَنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ نَبِيًّا رَسُولًا، صَعِدَ عَلَى جَبَلِ الصَّفَا، فَنَادَى قُرَيْشًا حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَقَالَ: أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا.

قُلْتُ مُسْتَنْتِجًا:

– مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ زُعَمَاءَ قُرَيْش يَشْهَدُونَ شَهَادَةً بَيِّنَةً لِلرَّسُولِ ﷺ بِأَنَّهُ الصَّادِقُ الْأَمِينُ.

– بَلَى يَا بُنَيَّ. وَقَدْ كَانَ أَبُو جَهْلٍ أَشَدَّ زُعَمَاءِ قُرَيْش بُغْضًا وَتَكْذِيبًا لِلرَّسُولِ ﷺ رَغْمَ عِلْمِهِ يَقِينًا بِأَنَّهُ صَادِقٌ فِي نُبُوَّتِهِ، وَقَدْ اعْتَرَفَ أَبُو جَهْلٍ بِصِدْقِ نُبُوَّةِ الرَّسُولِ ﷺ، فَقَدْ سَأَلَهُ ابْنُ أُخْتِهِ يَوْمًا: يَا خَالِي، هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَ مُحَمَّدًا بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ أُخْتِي، وَاللهِ لَقَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ فِينَا وَهْوَ شَابٌّ يُدْعَى الْأَمِينَ، فَمَا جَرَّبْنَا عَلَيْهِ كَذِبًا قَطُّ. قَالَ: يَا خَال، فَمَا لَكُمْ لَا تَتَّبِعُونَهُ؟ قَالَ: يا ابْنَ أُخْتِي، تَنَازَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو هاشم الشَّرَفَ، فَأَطْعَمُوا وَأَطْعَمْنَا، وَسَقَوْا وَسَقَيْنَا، وَأَجَارُوا وَأَجَرْنَا، حَتَّى إِذَا تَجَاثَيْنَا عَلَى الرُّكَبِ فَكُنَّا كَفَرَسَيْ رِهَانٍ، قَالُوا: مِنَّا نَبِيٌّ. فَمَتَى نُدْرِكُ مِثْلَ هَذِهِ؟!

وَلَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ صَادِقًا فِي كُلِّ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، حَتَّى فِي وَقْتِ الْمُزَاحِ وَالْفُكَاهَةِ، فَكَانَ ﷺ يُمَازِحُ أَصْحَابَهُ الْكِرَامَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَلَا يَقُولُ إِلَّا صِدْقًا. فَقَدْ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَحْمَلَهُ، فَقَالَ ﷺ لِلرَّجُلِ يُمَازِحُهُ: إِنَّا حَامِلُوكَ عَلَى وَلَدِ نَاقَةٍ. فَقَالَ الرَّجُلُ مُتَعَجِّبًا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَصْنَعُ بِوَلَدِ نَاقَةٍ؟ فَقَالَ ﷺ: وَهَلْ تَلِدُ الْإِبِلَ إِلاَّ النُّوقُ؟!

وَحَثَّ النَّبِيُّ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الصِّدْقِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، دِقِّهَا وَجُلِّهَا، فَقَالَ ﷺ: عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ

اللهِ صِدِّيقًا. وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا. وَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: "يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ" (التّوبة 119)

وَلَقَدْ عُرِفَ الرَّسُولُ ﷺ بَيْنَ النَّاسِ بِأَمَانَتِهِ وَنَزَاهَتِهِ، فَقَدْ كَانَ عَفِيفًا حَرِيصًا عَلَى أَدَاءِ الْأَمَانَاتِ وَالْحُقُوقِ لِأَصْحَابِهَا. اِشْتَغَلَ فِي تِجَارَةِ قُرَيش، ثُمَّ أَشْرَفَ عَلَى تِجَارَةِ السَّيِّدَةِ خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فَانْبَهَرَتْ بِأَخْلَاقِهِ الْكَرِيمَةِ ﷺ. وَقَدْ كَانَ أَهْلُ مَكَّةَ يَثِقُونَ بِأَمَانَةِ الرَّسُولِ ﷺ ثِقَةً عَصْمَاءَ لَا تَنْفَصِمُ، فَكَانُوا يَحْتَفِظُونَ عِنْدَهُ بِأَمْوَالِهِمْ وَوَدَائِعِهِمْ. وَحَتَّى بَعْدَ نُزُولِ الْوَحْيِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ، كَذَّبَهُ زُعَمَاءُ قُرَيْش وَآذَوْهُ وَتَصَدَّوْا لَهُ، لَكِنَّهُمْ أَبْقَوْا عَلَى أَمْوَالِهِمْ عِنْدَهُ لِعِلْمِهِمْ الْيَقِينِ بِأَمَانَتِهِ الْعَظِيمَةِ! وَلَمَّا أَذِنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ خَلَّفَ ﷺ عَلِيًّا بْنَ أَبِي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي مَكَّةَ لِتَسْلِيمِ الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا. فَتَأَمَّلْ يَا بُنَيَّ كَيْفَ كَانَ الْمُشْرِكُونَ مَشْغُولِينَ بِإِيذَاءِ الرَّسُولِ ﷺ، بَيْنَمَا كَانَ هُوَ مَشْغُولًا بِرَدِّ أَمَانَاتِهِمْ إِلَيْهِمْ!

وَذَاتَ يَوْمٍ، مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا. فَقَالَ: مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟ قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ ﷺ: أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ؟ مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي.

وَقَالَ ﷺ: أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذِبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ. وَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: "وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ، أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ" (المعارج 32 – 35)

فَتَذَكَّرْ دَوْمًا يَا عَبْدَ الرَّحْمَانِ أَنَّ الْكَذِبَ وَالْغِشَّ وَالْغَدْرَ صِفَاتٌ شَنِيعَةٌ مَذْمُومَةٌ لِأَنَّهَا تُؤَدِّي إِلَى التَّبَاغُضِ وَالضَّغِينَةِ وَالْقَطِيعَةِ بَيْنَ النَّاسِ وَضَيَاعِ حُقُوقِهِمْ.

قُلْتُ مُلَاحِظًا:

– صَدَقْتَ يَا جَدِّي، وَأَنَا مُتَأَكِّدٌ أَنَّ الْغِشَّ فِي الْإِمْتِحَانَاتِ أَيْضًا أَمْرٌ مَذْمُومٌ.

تَبَسَّمَ جَدِّي جمال قَائِلًا:

– مُلَاحَظَةٌ ذَكِيَّةٌ يَا بُنَيَّ. بِالطَّبْعِ إِنَّ الْغِشَّ فِي الْإِمْتِحَانَاتِ الدِّرَاسِيَّةِ أَمْرٌ مَذْمُومٌ بَلْ مَرْفُوضٌ تَمَامًا، لِأَنَّ النَّجَاحَ بِالْغِشِّ فِي الْإِمْتِحَانِ هُوَ نَجَاحٌ زَائِفٌ بَاطِلٌ لَا قِيمَةَ لَهُ. بَلْ إِنَّ مَنْ تَعَوَّدَ عَلَى النَّجَاحِ بِالْغِشِّ حَتَّى إِذَا أَنْهَى مَسِيرَتَهُ الدِّرَاسِيَّةَ وَحَصَلَ عَلَى شَهَادَةٍ جَامِعِيَّةٍ فَهُوَ لَنْ يَشْعُرَ بِالسُّرُورِ، بَلْ سَيَشْعُرُ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ بِالْخِزْيِ وَالْعَارِ وَسَيَحْتَقِرُ نَفْسَهُ. وَتَخَيَّلْ طَبِيبًا أَوْ مُهَنْدِسًا أَوْ قَائِدَ طَائِرَةٍ أَمْضَوْا دِرَاسَتَهُمْ فِي النَّجَاحِ بِالْغِشِّ الْمُتَوَاصِلِ، كَيْفَ سَيَكُونُ أَثَرُ ذَلِكَ فِي عَمَلِهِمْ؟

* * * * *

الحياء والوفاء

فِي الْأُسْبُوعِ الْمُوَالِي، قَالَ جَدِّي:

– إِنَّ الْحَيَاءَ خُلُقٌ إِسْلَامِيٌّ نَبِيلٌ، فَالْإِنْسَانُ الْحَيِيُّ يَتَجَنَّبُ الرَّذَائِلَ وَالْقَبَائِحَ، وَيُبَادِرُ إِلَى فِعْلِ الْفَضَائِلِ وَالْمَحَاسِنِ. وَغَايَةُ الْأَدَبِ أَنْ يَسْتَحِيَ الْإِنْسَانُ مِنَ اللهِ. وَحَيَاءُ الرَّجُلِ دَلِيلٌ عَلَى مُرُوءَتِهِ، وَحَيَاءُ الْمَرْأَةِ دَلِيلٌ عَلَى عِفَّتِهَا.

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: "يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ" (التّغابن 4)

وَقَالَ ﷺ: الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ.

وَقَالَ ﷺ: إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَإِنَّ خُلُقَ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ.

وَقَالَ ﷺ: الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ.

وَفِي قِصَّةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ، عِنْدَمَا أُسْرِيَ بِالرَّسُولِ ﷺ عَلَى دَابَّةِ الْبُرَاقِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ثُمَّ أُعْرِجَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، فَرَضَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، فَأَشَارَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ أَنْ يَطْلُبَ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ التَّخْفِيفَ، فَخَفَّفَ اللهُ بِرَحْمَتِهِ الصَّلَاةَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى صَارَتْ خَمْسًا فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، ثَوَابُ صَلَاةٍ

وَاحِدَةٍ بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ. فَلَمَّا أَشَارَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ أَنْ يُرَاجِعَ رَبَّهُ مَرَّةً أُخْرَى فِي تَخْفِيفِ الصَّلَاةِ، قَالَ ﷺ: اِسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي.

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ النَّاسِ حَيَاءً، فَقَدْ كَانَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، وَكَانَ إِذَا كَرِهَ أَمْرًا عَرَفَهُ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ فِي وَجْهِهِ. وَقَدْ رُوِيَ فِي صِفَةِ مَجْلِسِهِ ﷺ أَنَّهُ مَجْلِسُ حِلْمٍ وَحَيَاءٍ، إِذَا تَكَلَّمَ أَطْرَقَ جُلَسَاؤُهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُؤُوسِهِمْ الطَّيْرُ، وَإِذَا سَكَتَ تَكَلَّمُوا، لَا يَتَنَازَعُونَ الْحَدِيثَ، يَضْحَكُ مِمَّا يَضْحَكُونَ مِنْهُ، وَيَعْجَبُ مِمَّا يَعْجَبُونَ مِنْهُ، وَكَانَ جُلُّ ضَحِكِهِ تَبَسُّمًا ﷺ.

وَكَانَ مِنْ حَيَائِهِ ﷺ أَنَّهُ إِذَا بَلَغَهُ عَنِ الرَّجُلِ أَمْرٌ سَيِّئٌ لَمْ يَقُلْ: مَا بَالُ فُلَانٍ يَقُولُ؟ فَلَا يُخَاطِبُ الرَّجُلَ وَلَا يُوَجِّهُ كَلَامَهُ إِلَيْهِ مُبَاشَرَةً، حَيَاءً وَرِفْقًا بِهِ كَيْ لَا يُحْرِجَهُ أَمَامَ الْآخَرِينَ، بَلْ يُوَجِّهُ ﷺ كَلَامَهُ إِلَى عَامَّةِ مَنْ حَوْلَهُ فَيَقُولُ: مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا؟ وَفِي هَذَا السُّلُوكِ النَّبَوِيِّ فَائِدَتَانِ عَظِيمَتَانِ، فَالنَّبِيُّ ﷺ يَتَجَنَّبُ إِحْرَاجَ الرَّجُلِ أَمَامَ النَّاسِ، لَكِنَّهُ يُوَجِّهُهُ وَيَنْصَحُهُ مِنْ خِلَالِ تَوْجِيهٍ عَامٍّ لِكُلِّ النَّاسِ فَتَحْصُلُ الْفَائِدَةُ لِلْجَمِيعِ.

قُلْتُ مُسْتَنْتِجًا:

– إِذَنْ يَجِبُ أَنْ أَسْتَحِيَ مِنَ اللهِ فِي أَقْوَالِي وَأَفْعَالِي قَبْلَ أَنْ أَسْتَحِيَ مِنَ النَّاسِ، وَيَجِبُ أَنْ أَكُونَ حَيِيًّا مُؤَدَّبًا فِي كُلِّ أَحْوَالِي، فَإِذَا تَكَلَّمْتُ أَتَكَلَّمُ بِأَدَبٍ، وَإِذَا جَلَسْتُ أَجْلِسُ بِأَدَبٍ، وَإِذَا مَشَيْتُ أَمْشِي بِأَدَبٍ. وَإِذَا أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ أَحَدَ أَصْدِقَائِي أَنْصَحُهُ عَلَى انْفِرَادٍ كَيْ لَا أُحْرِجَهُ.

– أَحْسَنْتَ يَا بُنَيَّ.

– حَسَنًا يَا جَدِّي. أَخْبِرْنِي عَنْ خُلُقِ الْوَفَاءِ فِي شَخْصِيَّةِ الرَّسُولِ ﷺ.

– الْوَفَاءُ يَا بُنَيَّ هُوَ صِيَانَةُ الْمَوَدَّةِ وَالْمَحَبَّةِ، وَالْاِعْتِرَافُ بِالْجَمِيلِ، وَحِفْظُ الْوُعُودِ وَالْعُهُودِ. قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: "لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" (البقرة 177)

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْعَى الْمَوَدَّةَ لِأَهْلِهِ، وَيَصُونُ الْوُعُودَ مَعَ أَصْحَابِهِ، وَيَحْفَظُ الْعُهُودَ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ.

أَبْدَأُ بِذِكْرِ وَفَائِهِ لِزَوْجَتِهِ خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، تَزَوَّجَهَا ﷺ فَكَانَتْ لَهُ نِعْمَ الزَّوْجَةُ وَخَيْرَ الْعَوْنِ فِي بِدَايَةِ بِعْثَتِهِ، وَآزَرَتْهُ وَسَانَدَتْهُ فِي الشَّدَائِدِ وَالْمِحَنِ، وَهْيَ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِالرَّسُولِ ﷺ. فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ عِنْدَمَا بَدَأَ نُزُولُ الْوَحْيِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي غَارِ حِراء، وَكَانَ مَوْقِفًا شَدِيدًا عَصِيبًا، فَزِعَ الرَّسُولُ ﷺ وَرَجَعَ إِلَى زَوْجَتِهِ خديجة وَجِلًا يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا وَهْوَ يَقُولُ: زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي. فَزَمَّلَتْهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، وَأَخْبَرَهَا بِالْحَدَثِ الْجَلَلِ وَقَالَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي. فَقَالَتْ لَهُ بِلَهْجَةِ الزَّوْجَةِ الْحَنُونِ الْوَاثِقَةِ: كَلَّا! أَبْشِرْ،

فَوَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا! إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتُقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ.

وَقَدْ حَفِظَ النَّبِيُّ ﷺ لِزَوْجَتِهِ خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مَوَاقِفَهَا الْجَلِيلَةَ، فَلَمْ يَتَزَوَّجْ عَلَيْهَا فِي حَيَاتِهَا إِكْرَامًا لَهَا، وَكَانَ يَذْكُرُهَا بِالْخَيْرِ بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَيَصِلُ أَقْرِبَاءَهَا، وَيُحْسِنُ إِلَى صَدِيقَاتِهَا، وَهَذَا كُلُّهُ وَفَاءً لَهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا. وَقَالَ ﷺ عَنْهَا: إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا.

وَتَزَوَّجَ الرَّسُولُ ﷺ بَعْدَ وَفَاتِهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا. وَمِنْ زَوْجَاتِهِ السَّيِّدَةُ عائشة الصِّدِّيقَةُ بِنْتُ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَتْ: مَا غِرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ مِنْ كَثْرَةِ ذِكْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِيَّاهَا.

وَقَالَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: اِسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِد، أُخْتُ خَدِيجَةَ، عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ، فَارْتَاعَ لِذَلِكَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ هَالَةَ. قَالَتْ عائشة: فَغِرْتُ، فَقُلْتُ: مَا تَذْكُرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْش، حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ، هَلَكَتْ فِي الدَّهْرِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ خَيْرًا مِنْهَا. فَغَضِبَ الرَّسُولُ ﷺ وَقَالَ: مَا أَبْدَلَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا، قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ.

– وَمَنْ هُنَّ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ؟ وَمَا الْحِكْمَةُ فِي تَعَدُّدِ أَزْوَاجِهِ ﷺ؟

– أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ إِحْدَى عَشْرَةَ: خديجةُ بِنْتُ خُوَيْلِد، وَعَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، وَحَفْصَةُ بِنْتُ عُمَر بْنِ الْخَطَّاب، وَسَوْدَةُ بِنْتُ زُمْعَة، وَزَيْنَب بِنْتُ خُزَيْمَة، وَأُمُّ سَلَمَة، وَزَيْنَب بِنْتُ جَحْشٍ، وَجُوَيْرِيَة بِنْتُ الْحَارِث، وَأُمُّ حَبِيبَة، وَصَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيّ، وَمَيْمُونَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ. وَهُنَّ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ أَجْمَعِينَ. وَقَدْ تَعَدَّدَتْ أَزْوَاجُهُ ﷺ لِأَسْبَابٍ مُتَنَوِّعَةٍ يَطُولُ شَرْحُهَا، فَمَثَلًا كَانَ زَوَاجُهُ ﷺ مِنْ زَيْنَب بِنْتِ جَحْش رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لِحِكْمَةٍ هِيَ إِبْطَالُ عَادَةِ التَّبَنِّي الَّتِي كَانَتْ مُنْتَشِرَةً فِي الْجَاهِلِيَّةِ. وَتَزَوَّجَ ﷺ سَوْدَة بِنْتَ زُمْعة الْأَرْمَلَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا رِفْقًا بِحَالِهَا وَشَفَقَةً عَلَيْهَا وَحِفْظًا لِإِسْلَامِهَا، لِأَنَّهَا كَانَتْ مُسِنَّةً غَيْرَ ذَاتِ جَمَالٍ.

أَوْمَأْتُ مُتَفَهِّمًا، فَاسْتَطْرَدَ جَدِّي قَائِلًا:

– وَمِنْ وَفَائِهِ ﷺ لِعَمِّهِ أَبِي طَالب الَّذِي رَعَاهُ وَحَمَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَى إِبْلَاغِ دَعْوَتِهِ، لَمَّا حَضَرَتْ الْوَفَاةُ أَبَا طَالب حَرِصَ الرَّسُولُ ﷺ كُلَّ الْحِرْصِ عَلَى إِنْقَاذِهِ مِنَ الْكُفْرِ، فَقَالَ لَهُ: أَيْ عَمِّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةٌ أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ. فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ حَتَّى حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَمِّهِ بَعْضُ زُعَمَاءِ قُرَيْش الْمُشْرِكُونَ.

وَلَمْ يَنْسَ ﷺ فَضْلَ أَصْحَابِهِ الْكِرَامِ الَّذِينَ أَجَابُوا دَعْوَتَهُ وَآزَرُوهُ وَسَانَدُوهُ، فَهُوَ دَوْمًا يَدْعُو لَهُمْ وَيُوصِي بِهِمْ خَيْرًا، فَيَقُولُ ﷺ: اِحْفَظُونِي فِي

أَصْحَابِي. وَيَقُولُ ﷺ: لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ.

وَمِنْ مَوَاقِفِ وَفَاءِ الرَّسُولِ ﷺ بِالْعَهْدِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ مَا وَرَدَ فِي قِصَّةِ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ، إِذْ اتَّفَقَ الرَّسُولُ ﷺ مَعَ سُهَيْل بْنِ عَمْرو مَنْدُوبِ قُرَيْشٍ عَلَى عِدَّةِ بُنُودٍ، وَمِنْ بُنُودِ هَذَا الصُّلْحِ أَنَّ أَيَّ رَجُلٍ يَأْتِي إِلَى الرَّسُولِ ﷺ مِنْ قُرِيش يَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ وَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا. وَبَيْنَمَا كَانُوا يَكْتُبُونَ بَقِيَّةَ الْبُنُودِ إِذْ جَاءَ مُسْلِمٌ يَتَعَثَّرُ فِي قُيُودِهِ، فَإِذَا هُوَ أَبُو جَنْدَل بْنُ سُهَيْل بْنِ عَمْرو قَدْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ رَاغِبًا فِي اللَّحَاقِ بِالْمُسْلِمِينَ. فَقَالَ سُهَيْل: هَذَا يَا مُحَمَّد أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ. فَقَالَ ﷺ: إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ. فَقَالَ: إِذًا لَا أُصَالِحُكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا. فَرَفَضَ سُهَيْل تَسْلِيمَ أَبِي جَنْدَل لِلْمُسْلِمِينَ رَغْمَ إِصْرَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَقَالَ ﷺ لِأَبِي جَنْدَل: يَا أَبَا جَنْدَل! اِصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا. إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا، وَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطُونَا عَهْدَ اللهِ، وَإِنَّا لَا نَغْدِرُ بِهِمْ.

* * * * *

القناعة والكرم

فِي الْأُسْبُوعِ الْمُوَالِي، قَالَ جَدِّي:

– الْقَنَاعَةُ يَا بُنَيَّ هِيَ رِضَا الْإِنْسَانِ بِمَا لَهُ، وَتَعَفُّفُهُ عَمَّا لَيْسَ لَهُ. وَالْقَنَاعَةُ فِعْلًا كَنْزٌ لَا يَفْنَى، لِأَنَّهَا تُحَقِّقُ الرَّاحَةَ وَالطُّمَأْنِينَةَ فِي النَّفْسِ، وَتَحْمِي الْمُجْتَمَعَ مِنَ الْأَطْمَاعِ وَالْأَحْقَادِ وَالْمَفَاسِدِ.

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ" (النّحل 97) وَالْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ هِيَ الْقَنَاعَةُ.

وَلَخَّصَ النَّبِيُّ ﷺ سِرَّ الْقَنَاعَةِ فِي كَلِمَاتٍ بَسِيطَةٍ جَامِعَةٍ فَقَالَ: مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا.

وَقَالَ ﷺ: اِرْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ.

وَقَالَ ﷺ: أُنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ.

وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنْ عَمَلٍ إِذَا عَمِلَهُ أَحَبَّهُ اللهُ وَعَمَلٍ إِذَا عَمِلَهُ أَحَبَّهُ النَّاسُ، فَقَالَ لَهُ ﷺ: اِزْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّكَ اللهُ، وَازْهَدْ فِي مَا عِنْدَ النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَنُوعًا رَاضِيًا، زَاهِدًا فِي الدُّنْيَا. وَقَدْ خَيَّرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَكُونَ مَلِكًا نَبِيًّا أَوْ عَبْدًا نَبِيًّا، فَاخْتَارَ ﷺ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا نَبِيًّا. وَقَدْ تُوُفِّيَ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ.

وَقَالَتْ عَائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: مَا أَكَلَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ أُكْلَتَيْنِ فِي يَوْمٍ إِلَّا إِحْدَاهُمَا تَمْرٌ. وَقَالَتْ: مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ خُبْزِ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ حَتَّى قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. وَقَالَتْ: كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَدَمٍ وَحَشْوُهُ لِيفٌ.

وَقَالَ عُمر بنُ الخطّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ، فَجَلَسْتُ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ. فَنَظَرْتُ فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا فِيهَا قَبْضَةٌ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوَ الصَّاعِ، وَمِثْلَهَا قَرْظًا فِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ، وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ، فَبَكَيْتُ. فَقَالَ ﷺ: مَا يُبْكِيكَ يَا بْنَ الْخَطَّابِ؟ قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى، وَذَاكَ قَيْصر وَكِسْرى فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَصَفْوَتُهُ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ. فَقَالَ ﷺ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمْ الدُّنْيَا؟ قُلْتُ: بَلَى.

وَقَدْ حَثَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى فَضِيلَةِ الْقَنَاعَةِ وَالرِّضَا، وَحَارَبَ رَذِيلَةَ الطَّمَعِ وَالْحَسَدِ. فَقَدْ ذَهَبَ الصَّحَابِيُّ حكيم بْنُ حزام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ فَأَعْطَاهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ ثَانِيَةً فَأَعْطَاهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ ثَالِثَةً

فَأَعْطَاهُ، وَقَالَ لَهُ ﷺ مُرَبِّيًا: يَا حكيم، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ. وَالْيَدُ الْعُلْيَا (الَّتِي تُعْطِي) خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى (الَّتِي تَأْخُذُ). فَكَانَ حكيم بن حزام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَعْدَ هَذَا الْمَوْقِفِ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا وَلَا يَقْبَلُ عَطَاءً مِنْ أَحَدٍ.

قُلْتُ مُلَاحِظًا:

– إِذَنْ فَالسَّعَادَةُ يَا جَدِّي لَيْسَتْ فِي جَمْعِ الْأَمْوَالِ الْكَثِيرَةِ.

– بَلَى يَا بُنَيَّ، فَسَعَادَةُ الْإِنْسَانِ لَا تُحَقِّقُهَا كَثْرَةُ الْأَمْوَالِ، وَلَا الْقُصُورُ الْفَاخِرَةُ، وَلَا السَّيَّارَاتُ الْفَارِهَةُ. بَلْ إِنَّ سِرَّ السَّعَادَةِ الْحَقَّةِ هُوَ الْاِسْتِقَامَةُ عَلَى دِينِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمُحَرَّمَاتِ، ثُمَّ التَّحَلِّي بِالْقِيَمِ الْأَخْلَاقِيَّةِ النَّبِيلَةِ، وَفِعْلِ الْخَيْرِ وَمُسَاعَدَةِ النَّاسِ.

أَوْمَأْتُ مُوَافِقًا، ثُمَّ قُلْتُ:

– حَدِّثْنِي عَنْ كَرَمِ الرَّسُولِ ﷺ يَا جَدِّي.

قَالَ جَدِّي:

– كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ وَأَكْرَمَهُمْ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي شَهْرِ رمضان الْمُعَظَّمِ، فَهُوَ ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ، إِذْ كَانَ يُعْطِي عَطَاءَ مَنْ لَا يَخْشَى الْفَقْرَ، وَاثِقًا بِفَضْلِ اللهِ الْوَاسِعِ مُؤْمِنًا بِاسْمِ اللهِ الرَّزَّاقِ.

فَلَمْ يَكُنْ ﷺ يَرُدُّ سَائِلًا أَوْ مُحْتَاجًا، مَنْ سَأَلَهُ حَاجَةً لَمْ يَرُدَّهُ إِلَّا بِهَا أَوْ بِمَيْسُورٍ مِنَ الْقَوْلِ.

وَقَالَ ﷺ: لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، لَسَرَّنِي أَنْ لَا تَمُرَّ عَلَيَّ ثَلَاثُ لَيَالٍ وَعِنْدِي مِنْهُ شَيْءٌ، إِلَّا شَيْءٌ أُرْصِدُهُ لِدَيْنٍ.

وَكَثِيرًا مَا كَانَ ﷺ يَتَأَلَّفُ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ الْجُدُدِ بِالْعَطَايَا. فَقَدْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ الرَّجُلُ إِلَى قَوْمِهِ وَهْوَ يَقُولُ: يَا قَوْمُ أَسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءَ مَنْ لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ!

وَإِنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ ﷺ: مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ. وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفُّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ.

وَقَدْ جِيءَ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِمَالٍ كَثِيرٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَقَالَ: أُنْثُرُوهُ فِي الْمَسْجِدِ. وَخَرَجَ ﷺ إِلَى الصَّلَاةِ وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ. فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ جَاءَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ، فَمَا كَانَ يَرَى أَحَدًا إِلَّا أَعْطَاهُ، وَمَا قَامَ ﷺ وَثَمَّ مِنْهُ دِرْهَمٌ.

وَكَانَ لِكَرَمِ الرَّسُولِ ﷺ أَثَرٌ بَالِغٌ فِي نُفُوسِ النَّاسِ، فَكَانُوا يَأْتُونَ إِلَيْهِ قَاصِدِينَ الْعَوْدَةَ بِالْأَمْوَالِ، وَسُرْعَانَ مَا تَنْشَرِحُ صُدُورُهُمْ لِلْإِسْلَامِ فَيَنْفَذُ إِلَى قُلُوبِهِمْ. يَقُولُ أَنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا، فَمَا يُسْلِمُ حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا!

وَإِذَا أَحَسَّ النَّبِيُّ ﷺ بِحَاجَةِ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، يُوصِلُ إِلَيْهِ الْعَطَاءَ بِطَرِيقَةٍ ذَكِيَّةٍ تُرَاعِي مَشَاعِرَهُ وَلَا تُوقِعُهُ فِي الْإِحْرَاجِ. كَمَا فَعَلَ مَعَ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حِينَمَا كَانَا عَائِدَيْنِ مِنْ إِحْدَى الْغَزَوَاتِ، وَكَانَ ﷺ يَعْلَمُ بِفَقْرِ جَابِرٍ وَاحْتِيَاجِهِ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَشْتَرِيَ مِنْهُ بَعِيرَهُ. وَلَمَّا قَدِمَ ﷺ الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ أَمَرَ بِلَالًا أَنْ يَرُدَّ إِلَى جَابِرٍ مَالَهُ وَيَزِيدَهُ، وَأَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ بَعِيرَهُ.

وَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَحُثُّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى فَضِيلَةِ الْكَرَمِ: "لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ" (آل عمران 92)

* * * * *

الصّبر والتّفاؤل

فِي الْأُسْبُوعِ الْمُوَالِي، قَالَ جَدِّي:

– مِنْ مَعَانِي الصَّبْرِ يَا بُنَيَّ أَنْ لَا يَجْزَعَ الْإِنْسَانُ عِنْدَ نُزُولِ الْمَصَائِبِ وَالْمِحَنِ، بَلْ يَتَصَبَّرُ بِالْإِيمَانِ وَيَسْتَمْسِكُ بِالثِّقَةِ فِي رَحْمَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحِكْمَتِهِ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ، وَشِعَارُ الصَّابِرِينَ: إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" (البقرة 155، 156)

وَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ أَثْقَلَ النَّاسِ هَمًّا لَكِنَّهُ كَانَ أَعْظَمَ النَّاسِ صَبْرًا، بَلْ لَقَدْ كَانَ ﷺ أَكْثَرَ النَّاسِ تَبَسُّمًا، فَقَدْ كَانَ لَا يُرَى إِلَّا بَاسِمًا ﷺ.

وَلَقَدْ تَعَرَّضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهْوَ يَدْعُو إِلَى اللهِ فِي مَكَّةَ إِلَى أَذًى شَدِيدٍ مِنْ زُعَمَاءِ الْكُفَّارِ، وَلَكِنَّهُ ﷺ كَانَ حَكِيمًا وَلَهُ بُعْدُ نَظَرٍ، فَلَمْ يُقَابِلْ الْإِيذَاءَ بِالْمِثْلِ، بَلْ صَبَرَ عَلَى أَذَى قُرَيْش وَحَثَّ أَصْحَابَهُ عَلَى الصَّبْرِ وَعَدَمِ رَدِّ الْأَذَى.

وَقَدْ اخْتَارَ ﷺ أَنْ لَا يَرُدَّ الْإِيذَاءَ بِالْإِيذَاءِ كَيْ لَا تَحْدُثَ مَعَارِكُ طَاحِنَةٌ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُسْلِمِينَ فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَة، فَقَدْ كَانَ ﷺ يُحِبُّ وَطَنَهُ كَثِيرًا وَيَسْعَى لِحِمَايَتِهِ مِنَ الصِّرَاعَاتِ. قَالَ ﷺ عِنْدَ هِجْرَتِهِ مِنْ مَكَّةَ: مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ.

قُلْتُ مُسْتَنْتِجًا:

– إِذَنْ فَمِنْ وَاجِبِ الْمُسْلِمِ أَنْ يُحِبَّ وَطَنَهُ وَيَعْمَلَ عَلَى حِمَايَتِهِ وَالذَّوْدِ عَنْهُ وَالْمُسَاهَمَةِ فِي تَطَوُّرِهِ وَازْدِهَارِهِ.

تَبَسَّمَ جَدِّي قَائِلًا:

– أَحْسَنْتَ فَهْمًا يَا بُنَيَّ. وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُصَلِّي فِي مَكَّةَ عِنْدَ الْبَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَرِفَاقُهُ جَالِسُونَ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَا جَزُورٍ فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّد إِذَا سَجَدَ؟ فَذَهَبَ أَشْقَى الْقَوْمِ فَجَاءَ بِالْأَوْسَاخِ، فَانْتَظَرَ حَتَّى سَجَدَ الرَّسُولُ ﷺ فَوَضَعَهَا عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ. فَجَعَلَ الْمُشْرِكُونَ يَتَضَاحَكُونَ وَيَتَمَايَلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَأَشْرَفُ الْخَلْقِ ﷺ سَاجِدٌ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، حَتَّى جَاءَتْ بِنْتُهُ فَاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ الْأَذَى وَهْيَ تَبْكِي.

وَقَدْ تَمَادَى كُفَّارُ قُرَيْشٍ فِي إِيذَاءِ الرَّسُولِ ﷺ إِيذَاءً شَدِيدًا، فَبَيْنَمَا كَانَ ﷺ يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ، إِذْ أَقْبَلَ شَقِيٌّ فَلَوَى ثَوْبَهُ وَوَضَعَهُ فِي عُنُقِ الرَّسُولِ ﷺ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَهُ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ قَائِلًا: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ؟!

وَلَقَدْ رَمَى الْمُشْرِكُونَ الرَّسُولَ ﷺ بِأَقْبَحِ الصِّفَاتِ وَأَشْنَعِ النُّعُوتِ ظُلْمًا وَإِثْمًا وَبُهْتَانًا، فَاتَّهَمُوهُ بِأَنَّهُ كَاهِنٌ وَشَاعِرٌ وَمَجْنُونٌ وَسَاحِرٌ، لَكِنَّهُ قَابَلَ الْإِسَاءَةَ وَالظُّلْمَ بِالصَّبْرِ وَالْحِلْمِ. فَقَدْ كَانَ ﷺ مُشْفِقًا عَلَيْهِمْ رَحِيمًا بِهِمْ حَرِيصًا

عَلَى إِخْرَاجِهِمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ إِلَى نُورِ التَّوْحِيدِ. وَقَدْ رَفَعَ اللهُ الْعَزِيزُ لِلرَّسُولِ ﷺ ذِكْرَهُ، وَكَفَاهُ شَرَّ الْمُسْتَهْزِئِينَ.

بَلْ لَقَدْ كَانَ مِنْ ظُلْمِ مُشْرِكِي قُرَيْش وَعُدْوَانِهِمْ أَنْ حَاصَرُوا الْمُسْلِمِينَ فِي شِعْبِ أَبِي طالب، وَدَامَ الْحِصَارُ الْبَغِيضُ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ مَرَّتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ كَالدَّهْرِ لِمَا فِيهِ مِنْ مَشَقَّةٍ وَعَذَابٍ. يَقُولُ الرَّسُولُ ﷺ: لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللهِ وَمَا يَخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبِطُ بِلَالٍ.

وَتَوَالَتْ الْأَحْزَانُ وَالْهُمُومُ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي الْحِصَارِ، فَمَاتَ عَمُّهُ أَبُو طالب الَّذِي كَانَ يَحُوطُهُ وَيَحْمِيهِ، ثُمَّ مَاتَتْ زَوْجَتُهُ خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا الَّتِي كَانَتْ خَيْرَ مُعِينٍ لَهُ. فَخَرَجَ ﷺ مَهْمُومًا يَمْشِي عَلَى قَدَمَيْهِ إِلَى الطَّائِفِ الَّتِي تَبْعُدُ عَنْ مَكَّةَ عَشَرَاتِ الْكِيلُومِتْرَاتِ، وَدَعَا قَبِيلَةَ ثقيف إِلَى الْإِسْلَامِ. فَتَطَاوَلُوا عَلَيْهِ وَطَرَدُوهُ، ثُمَّ أَغْرَوْا بِهِ سُفَهَاءَهُمْ فَلَاحَقُوهُ بِالسَّبِّ وَالشَّتْمِ وَالْحِجَارَةِ، حَتَّى دَمِيَتْ قَدَمَاهُ الشَّرِيفَتَانِ. وَحَاوَلَ زَيْد بْنُ حَارثة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنْ يَحْمِيَ الرَّسُولَ ﷺ فَأُصِيبَ فِي رَأْسِهِ.

ثُمَّ قَرَّرَ الرَّسُولُ ﷺ الْخُرُوجَ مِنْ مَكَّةَ وَهْيَ أَحَبُّ الْأَمَاكِنِ إِلَى قَلْبِهِ بَعْدَ أَنْ أَدْرَكَ أَنْ لَا مُقَامَ لَهُ فِيهَا. فَبَدَأَ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى الْقَبَائِلِ الْوَافِدَةِ عَلَى مَكَّةَ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ لِيَحْمُوهُ وَيُسَانِدُوهُ وَيَتَّبِعُوا مَا جَاءَ بِهِ، وَكَانَ مِنْ عَزْمِهِ وَمُثَابَرَتِهِ أَنَّهُ عَرَضَ دَعْوَتَهُ عَلَى عِشْرِينَ قَبِيلَةً بِصَبْرٍ عَظِيمٍ وَإِصْرَارٍ كَبِيرٍ دُونَ كَلَلٍ وَلَا مَلَلٍ.

فَانْظُرْ يَا بُنَيَّ إِلَى صَبْرِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى أَذَى الْمُشْرِكِينَ، وَانْظُرْ إِلَى إِصْرَارِهِ فِي تَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ رَغْمَ الْمَصَاعِبِ وَالْهُمُومِ وَالْأَحْزَانِ. فَهُوَ ﷺ لَا يَسْتَسْلِمُ لِلْأَحْزَانِ مَهْمَا تَرَاكَمَتْ، فَلَا يَنْتَكِسُ وَلَا يَكْتَئِبُ وَلَا يَيْأَسُ، بَلْ يُحَوِّلُ ﷺ الْحُزْنَ إِلَى طَاقَةٍ بَنَّاءَةٍ وَيَسْعَى دَوْمًا لِلْبَحْثِ عَنِ حُلُولٍ مُنَاسِبَةٍ لِلْمَوَاقِفِ الصَّعْبَةِ بِإِرَادَةٍ قَوِيَّةٍ وَعَزْمٍ ثَابِتٍ.

– مَا أَعْظَمَ صَبْرَهُ وَمَا أَثْبَتَ عَزْمَهُ ﷺ! وَهَلْ كَانَ النَّاسُ يَحُجُّونَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ يَا جَدِّي؟

– نَعَمْ يَا بُنَيَّ. فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ النَّاسُ يَحُجُّونَ إِلَى مَكَّةَ حَجًّا وَثَنِيًّا يُقَدِّسُونَ الْأَوْثَانَ وَيَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ. وَاسْتَمَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ، فَكَانَ يَمْشِي بَيْنَ النَّاسِ وَيُنَادِي: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا! مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ؟ وَلَكِنَّ أَبَا لَهَبٍ عَمَّ الرَّسُولِ ﷺ كَانَ يَمْشِي وَرَاءَهُ وَيُحَذِّرُ النَّاسَ مِنْهُ، فَيَزْدَادُ ﷺ هَمًّا وَغَمًّا، لَكِنَّهُ لَا يَنْهَرُ عَمَّهُ وَلَا يُسِيءُ إِلَيْهِ.

وَقَدْ صَبَرَ ﷺ فِي الدَّعْوَةِ وَثَابَرَ، وَمِنْ مَوَاقِفِ صَبْرِهِ الْعَظِيمِ وَمُثَابَرَتِهِ الْمُنْقَطِعَةِ النَّظِيرِ أَنَّ فِي خِلَالِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ عَامًا مِنْ دَعْوَتِهِ ﷺ إِلَى الْإِسْلَامِ فِي مَكَّةَ لَمْ يَزِدْ عَدَدُ الْمُسْلِمِينَ عَنْ بِضْعِ عَشَرَاتٍ، فَانْظُر يَا بُنَيَّ وَتَأَمَّلْ فِي إِرَادَتِهِ الرَّاسِخَةِ وَعَزْمِهِ الَّذِي لَا يَلِينُ ﷺ!

وَبَعْدَ مَسِيرَةِ شَاقَّةٍ مِنَ الصَّبْرِ وَالْإِصْرَارِ وَالْمُثَابَرَةِ، اِلْتَقَى الرَّسُولُ ﷺ نَفَرًا مِنَ الْخَزْرَجِ مِنْ أَهْلِ يَثْرِب. فَجَالَسَهُمْ وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ الْإِسْلَامَ وَتَلَا عَلَيْهِمْ الْقُرْآنَ، فَأَجَابُوهُ لِمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ وَأَسْلَمُوا. وَفِي الْعَامِ الْمُوَالِي قَدِمَ وَفْدٌ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ فَبَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ الْأُولَى، وَأَرْسَلَ ﷺ مَعَهُمْ إِلَى يَثْرِب مُصْعب بْنَ عُمَيْر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُعَلِّمُهُمْ الْإِسْلَامَ وَيَدْعُو إِلَيْهِ. وَفِي الْعَامِ الْمُوَالِي قَدِمَ مِنْ يَثْرِب وَفْدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ فَبَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ الثَّانِيَة، فَأَجْمَعُوا عَلَى حِمَايَتِهِ وَمُسَانَدَتِهِ لِتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ. ثُمَّ كَانَتْ هِجْرَةُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى يَثْرِبَ الْمَدِينَةِ، لِتَبْدَأَ مَرْحَلَةُ بِنَاءِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

قُلْتُ مُنْبَهِرًا:

– سُبْحَانَ اللهِ! أَيُّ صَبْرٍ هَذَا وَأَيَّةُ مُثَابَرَةٍ هَذِهِ!

– سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ واللهُ أَكْبَر. قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: "إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ" (الزّمر 10)

وَقَدْ صَبَرَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ فَاجَأَتْهُ الْأَقْدَارُ بِمَوْتِ بَنِيهِ وَبَنَاتِهِ. فَقَدْ كَانَ لَهُ مِنَ الذُّرِّيَّةِ سَبْعَةٌ، تَوَالَى مَوْتُهُمْ وَاحِدًا تِلْوَ الْآخَرِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا فَاطِمَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا. فَصَبَرَ ﷺ صَبْرًا جَمِيلًا، وَبَكَى يَوْمَ مَوْتِ ابْنِهِ ابراهيم وَقَالَ: إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا ابْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ.

– إِذَنْ فَالصَّبْرُ يَا جَدِّي لَا يَعْنِي عَدَمَ الْحُزْنِ، وَلَكِنْ يَجِبُ عَدَمُ الْمُبَالَغَةِ فِي الْحُزْنِ، وَأَنْ لَا نَقُولَ إِلَّا مَا يُرْضِي اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، كَأَنْ نَقُولَ: إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

– بَلَى يَا بُنَيَّ.

– حَسَنًا يَا جَدِّي. حَدِّثْنِي عَنْ تَفَاؤُلِهِ ﷺ؟

– التَّفَاؤُلُ يَا عَبْدَ الرَّحْمَانِ هُوَ حُسْنُ الظَّنِّ بِاللهِ وَتَوَقُّعُ الْخَيْرِ، وَالْحَيَاةُ تَطِيبُ بِالتَّفَاؤُلِ وَالْأَمَلِ. فَالْمُتَفَائِلُ لَا يَسْمَحُ لِلْمَصَائِبِ أَنْ تَرْمِيَ بِهِ فِي مُسْتَنْقَعِ التَّشَاؤُمِ، بَلْ هُوَ يَرَى فِي الْمِحْنَةِ مِنْحَةً، وَيُبْصِرُ شُعَاعَ الشَّمْسِ يَتَلَأْلَأُ مِنْ خِلَالِ السُّحُبِ الْكَثِيفَةِ، وَنُورَ الْفَجْرِ يَنْبَلِجُ مِنْ قَلْبِ الظَّلَامِ الْحَالِكِ. وَمِنَ التَّفَاؤُلِ أَنْ لَا يَسْمَحَ الْإِنْسَانُ لِلْإِحْبَاطِ أَنْ يُحَطِّمَهُ، وَلَا لِلْيَأْسِ أَنْ يُسَيْطِرَ عَلَيْهِ، فَلَيْسَ أَحَبَّ لِلشَّيْطَانِ مِنْ حُزْنِ الْمُؤْمِنِ. وَالْمُتَفَائِلُ لَا يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، بَلْ يَرْجُو عَوْنَ اللهِ وَتَوْفِيقَهُ، وَيَعْتَصِمُ بِحُسْنِ الظَّنِّ بِهِ رَاجِيًا الْفَرَجَ وَالْخَيْرَ.

لَكِنْ احْذَرْ يَا عَبْدَ الرَّحْمَانِ، يَجِبُ أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَ التَّفَاؤُلِ وَطُولِ الْأَمَلِ، فَالتَّفَاؤُلُ وَالطُّمُوحُ خَصْلَتَانِ مَحْمُودَتَانِ، أَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَهُوَ أَمْرٌ مَذْمُومٌ. وَقَدْ لَخَّصَ الشَّاعِرُ هَذَا الْفَرْقَ فِي بَيْتٍ شِعْرِيٍّ جَمِيلٍ:

اِعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا – – وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا

وَالتَّفَاؤُلُ الْمَحْمُودُ لَا يَكُونُ بِالتَّكَاسُلِ وَالتَّقَاعُسِ، بَلْ يَكُونُ بِالْجِدِّ وَالْاِجْتِهَادِ وَالْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ ثُمَّ التَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ.

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: "وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا" (الطّلاق 2، 3)

وَفِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي. إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ. وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً.

وَقَالَ ﷺ: لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ. وَالطِّيَرَةُ هِيَ التَّشَاؤُمُ، وَالْفَأْلُ هُوَ الْكَلِمَةُ الْحَسَنَةُ الطَّيِّبَةُ.

وَقَالَ ﷺ: عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلُّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ.

وَقَالَ ﷺ: الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ. اِحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ. فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ.

وَقَدْ كَانَ ﷺ مُتَفَائِلًا طَمُوحًا فِي كُلِّ أُمُورِهِ وَأَحْوَالِهِ، وَلَهُ بَصِيرَةٌ نَيِّرَةٌ وَبُعْدُ نَظَرٍ، فَكَانَ فِي أَصْعَبِ الظُّرُوفِ وَأَحْلَكِ الْمَوَاقِفِ يُبَشِّرُ أَصْحَابَهُ بِالنَّصْرِ وَالْفَتْحِ مُسْتَمِدًّا تَفَاؤُلَهُ مِنْ مَعِينٍ لَا يَنْضَبُ هُوَ حُسْنُ الظَّنِّ بِاللهِ الْحَكِيمِ الْكَرِيمِ.

– أَسْتَنْتِجُ يَا جَدِّي أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ دَوْمًا مُتَفَائِلًا. وَأَسْتَنْتِجُ أَنَّهُ إِذَا اقْتَرَبَتْ الْإِمْتِحَانَاتُ يَجِبُ أَنْ أَبْذُلَ قُصَارَى جُهْدِي فِي الْمُرَاجَعَةِ، ثُمَّ لَا أَعْتَمِدُ عَلَى مُرَاجَعَتِي وَحِفْظِي، بَلْ أَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ وَأَدْعُوهُ بِالنَّجَاحِ وَالتَّوْفِيقِ.

– أَحْسَنْتَ فَهْمًا يَا عَبْدَ الرَّحْمَان. وَمِنْ أَمْثِلَةِ تَفَاؤُلِهِ ﷺ عِنْدَ هِجْرَتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، عِنْدَمَا مَكَثَ فِي غَارِ ثَوْرٍ مَعَ صَاحِبِهِ الصِّدِّيقِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَقَدْ أَقْبَلَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ إِلَى الْغَارِ فِي طَلَبِهِمْ. يَقُولُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رُؤُوسِنَا وَنَحْنُ فِي الْغَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ! فَقَالَ ﷺ بِلَهْجَةِ الْوَاثِقِ بِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ: يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا!

وَفِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ، اِتَّفَقَ الرَّسُولُ ﷺ مَعَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ عَلَى حَفْرِ خَنْدَقٍ حَوْلَ الْمَدِينَةِ، وَكَانَ مَوْقِفًا عَصِيبًا. وَأَثْنَاءَ الْحَفْرِ، اِشْتَكَى الصَّحَابَةُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ صَخْرَةً ضَخْمَةً صُلْبَةً لَمْ يَسْتَطِيعُوا تَكْسِيرَهَا. فَجَاءَ ﷺ وَأَخَذَ الْمِعْوَلَ وَقَالَ: بِسْمِ اللهِ، فَضَرَبَ ضَرْبَةً كَسَّرَ مِنْهَا ثُلُثَ الْحَجَرِ، وَقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا. ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللهِ، وَضَرَبَ ضَرْبَةً ثَانِيَةً فَكَسَّرَ ثُلُثَ

الْحَجَرِ، فَقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارس، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا. ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللهِ، وَضَرَبَ ضَرْبَةً كَسَّرَتْ الثُّلُثَ الْأَخِيرَ، فَقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا.

فَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ ضِعَافُ الْإِيمَانِ فَكَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ قَائِلِينَ: مُحَمَّدٌ يَعِدُنَا كُنُوزَ الدُّنْيَا، وَأَحَدُنَا لَا يَأْمَنُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَقْضِيَ حَاجَتَهُ!

لَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِعْلًا فِي مَوْقِفٍ حَرِجٍ مُحَاصَرِينَ يُوَاجِهُونَ الْمَصَاعِبَ وَالْخَوْفَ وَالْجُوعَ!

هَتَفْتُ مُتَعَجِّبًا:

– أَلِهَذِهِ الدَّرَجَةِ كَانَ الْمَوْقِفُ عَصِيبًا؟!

– بَلَى يَا بُنَيَّ، وَلَكِنَّ تَفَاؤُلَ الرَّسُولِ ﷺ كَانَ أَقْوَى مِنْ سُخْرِيَةِ الْمُنَافِقِينَ، وَثِقَتُهُ فِي رَبِّهِ رَاسِخَةٌ، وَحُسْنُ ظَنِّهِ بِهِ لَا يَتَذَبْذَبُ. وَتَمُرُّ الْأَيَّامُ وَالْأَعْوَامُ، وَتَتَحَقَّقُ بِشَارَاتُهُ ﷺ فِي عَهْدِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَهُمْ أَبُو بَكْر الصِّدِّيقُ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّان وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

وَفِي قِصَّةِ إِسْلَامِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ لَهُ ﷺ: أَمَا إِنِّي أَعْلَمُ مَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الْإِسْلَامِ، تَقُولُ: إِنَّمَا اتَّبَعَهُ ضَعَفَةُ النَّاسِ، وَمَنْ لَا قُوَّةَ لَهُ، وَقَدْ رَمَتْهُمْ الْعَرَبُ. أَتَعْرِفُ الْحِيرَةَ؟ فَأَجَابَ عَدِيّ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ سَمِعْتُ بِهَا. قَالَ ﷺ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى تَخْرُجَ الظَّعِينَةُ مِنَ

الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ، وَلَيَفْتَحَنَّ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُز. قَالَ عديّ مُتَعَجِّبًا: كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ؟! قَالَ ﷺ: نَعَمْ، كِسْرَى بْنُ هُرْمُز. وَلَيُبْذَلَنَّ الْمَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ.

وَتَمُرُّ الْأَيَّامُ وَالْأَعْوَامُ، وَيَقُولُ عَدِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فَهَذِهِ الظَّعِينَةُ تَخْرُجُ مِنَ الْحِيرَةِ فَتَطُوفُ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارٍ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِيمَنْ فَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكُونَنَّ الثَّالِثَةُ، لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ قَالَهَا!!

وَلَقَدْ تَحَقَّقَتْ بِشَارَةُ الرَّسُولِ ﷺ الثَّالِثَةُ فِي عَهْدِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ الْخَامِسِ، إِذْ كَانَ الرَّجُلُ يَخْرُجُ بِزَكَاةِ مَالِهِ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَهَا، فَلَا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا!

* * * * *

الحكمة والشّجاعة

فِي الْأُسْبُوعِ الْمُوَالِي، قَالَ جَدِّي:

– لَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ حَكِيمًا مُتَبَصِّرًا، وَفِي سِيرَتِهِ مَوَاقِفُ كَثِيرَةٌ لِحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ وَبَصِيرَتِهِ النَّافِذَةِ. أَتَذْكُرُ قِصَّةَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ يَا عَبْدَ الرَّحْمَانِ؟

– بَلَى يَا جَدِّي. لَقَدْ وَصَلْتَ فِي حِكَايَتِهَا إِلَى هُتَافِ زُعَمَاءِ قُرَيْش عِنْدَ دُخُولِ الرَّسُولِ ﷺ: الْأَمِينُ ارْتَضَيْنَاهُ!

– نَعَمْ يَا بُنَيَّ. أَخْبَرْتُكَ أَنَّ زُعَمَاءَ قُرَيْش اخْتَصَمُوا خُصُومَةً شَدِيدَةً وَأَوْشَكُوا عَلَى الْاِقْتِتَالِ، ثُمَّ ارْتَضَوْا الصَّادِقَ الْأَمِينَ ﷺ حَكَمًا بَيْنَهُمْ. فَقَالَ ﷺ: هَلُمَّ إِلَيَّ ثَوْبًا. فَأُتِيَ بِهِ، فَوَضَعَ فِيهِ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ. ثُمَّ قَالَ ﷺ: لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ، ثُمَّ ارْفَعُوهُ جَمِيعًا. فَفَعَلُوا، حَتَّى إِذَا بَلَغُوا بِالْحَجَرِ الْأَسْوَدِ مَوْضِعَهُ، وَضَعَهُ ﷺ بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ، ثُمَّ بَنَى عَلَيْهِ. فَانْظُرْ يَا عَبْدَ الرَّحْمَانِ إِلَى سُرْعَةِ بَدِيهَةِ الرَّسُولِ ﷺ، فَبِعَقْلِهِ الرَّاجِحِ وَتَفْكِيرِهِ الْحَكِيمِ حَسَمَ ﷺ الْخِصَامَ بَيْنَ قَبَائِلِ مَكَّةَ، وَأَرْضَاهُمْ جَمِيعًا، وَجَنَّبَ بَلَدَهُ وَقَوْمَهُ قِتَالًا حَامِيًا.

وَبَعْدَ نُزُولِ الْوَحْيِ وَبَدْءِ الدَّعْوَةِ، كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَدْعُو النَّاسَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا

غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ" (آل عمران 159)

وَمِنْ ذَلِكَ مَوْقِفُهُ مَعَ صَاحِبِ مَجَلَّةِ لُقْمَان، فَقَدْ دَعَاهُ ﷺ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: فَلَعَلَّ الَّذِي مَعَكَ مِثْلُ الَّذِي مَعِي! فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَمَا الَّذِي مَعَكَ؟ قَالَ: مَجَلَّةُ لُقْمَانَ (يَعْنِي حِكْمَةَ لُقْمَانَ). فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اِعْرِضْهَا عَلَيَّ. فَعَرَضَهَا عَلَيْهِ. فَقَالَ ﷺ: إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ حَسَنٌ، وَالَّذِي مَعِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، قُرْآنٌ أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيَّ هُوَ هُدًى وَنُورٌ. فَتَلَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْقُرْآنَ وَدَعَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَلَمْ يَبْعُدْ مِنْهُ، وَقَالَ: إِنَّ هَذَا لَقَوْلٌ حَسَنٌ.

وَمِنْ أَمْثِلَةِ قُدْرَتِهِ الْفَذَّةِ ﷺ عَلَى الْمُحَاوَرَةِ وَالْإِقْنَاعِ مَا كَانَ مِنْ قِصَّتِهِ مَعَ الْحُصَيْنِ بْنِ الْمُنْذِر. إِذْ جَاءَتْ قُرَيْش إِلَى الْحُصَيْن، فَقَالُوا لَهُ: كَلِّمْ لَنَا هَذَا الرَّجُلَ، فَإِنَّهُ يَشْتُمُ آلِهَتَنَا وَيَسُبُّهَا. فَدَخَلَ حُصَيْن عَلَى الرَّسُولِ ﷺ، فَقَالَ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: أَوْسِعُوا لِلشَّيْخِ. فَجَلَسَ حصين وَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِي بَلَغَنَا عَنْكَ أَنَّكَ تَشْتُمُ آلِهَتَنَا وَتَسُبُّهَا؟ فَاسْتَمَعَ الرَّسُولُ ﷺ بِأَدَبٍ وَحِلْمٍ، ثُمَّ قَالَ: يَا حُصَيْن، كَمْ تَعْبُدُ مِنْ إِلَهٍ؟ قَالَ: سَبْعَةً فِي الْأَرْضِ، وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ. فَقَالَ ﷺ: فَإِذَا أَصَابَكَ الضُّرُّ، مَنْ تَدْعُو؟ قَالَ: أَدْعُو الَّذِي فِي السَّمَاءِ. قَالَ ﷺ: فَإِذَا هَلَكَ الْمَالُ مَنْ تَدْعُو؟ قَالَ: أَدْعُو الَّذِي فِي السَّمَاءِ. قَالَ ﷺ: فَيَسْتَجِيبُ لَكَ وَحْدَهُ، وَتُشْرِكُهُمْ مَعَهُ! أَرَضِيتَهُ فِي الشُّكْرِ أَمْ تَخَافُ

أَنْ يُغْلَبَ عَلَيْكَ؟ قَالَ: وَلَا وَاحِدَةً مِنْ هَاتَيْنِ. فَقَالَ ﷺ: يَا حُصَيْن، أَسْلِمْ تَسْلَمْ. فَكَّرَ حُصَيْن وَقَالَ: إِنَّ لِي قَوْمًا وَعَشِيرَةً، فَمَاذَا أَقُولُ؟ قَالَ ﷺ: قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَهْدِيكَ لِأَرْشَدِ أَمْرِي وَزِدْنِي عِلْمًا يَنْفَعُنِي. فَقَالَهَا حُصَيْن، فَلَمْ يَقُمْ حَتَّى أَسْلَمَ. فَقَامَ إِلَيْهِ ابْنُهُ عِمْرَان فَقَبَّلَ رَأْسَهُ وَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ. فَرَقَّ الرَّسُولُ ﷺ لِهَذَا الْمَوْقِفِ الْمُؤَثِّرِ وَبَكَى.

وَمِنْ مَظَاهِرِ حِكْمَتِهِ الْفَذَّةِ أَنَّهُ ﷺ أَنْشَأَ مَدْرَسَةً فِي دَارِ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ يَجْتَمِعُ فِيهَا بِالْمُسْلِمِينَ فَيُعَلِّمُهُمْ أُمُورَ دِينِهِمْ، وَيُشَجِّعُهُمْ عَلَى الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ، وَيَأْمُرُهُمْ بِعَدَمِ رَدِّ الْأَذَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ لِأَنَّهُ ﷺ كَانَ حَرِيصًا عَلَى أَنْ يُجَنِّبَ وَطَنَهُ الصِّرَاعَاتِ وَالْمَعَارِكَ.

وَلَمَّا اشْتَدَّ إِيذَاءُ قُرَيْش لِلْمُسْلِمِينَ الْمُسْتَضْعَفِينَ، اِقْتَرَحَ الرَّسُولُ ﷺ عَلَى عَدَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْهِجْرَةَ إِلَى الْحَبَشَةِ.

تَسَاءَلْتُ قَائِلًا:

– وَلَكِنْ لِمَاذَا اخْتَارَ الرَّسُولُ ﷺ بِلَادَ الْحَبَشَةِ لِلْهِجْرَةِ دُونَ سِوَاهَا مِنَ الْبُلْدَانِ؟

– كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَعْلَمُ أَنَّ مَلِكَ الْحَبَشَةِ النَّجَاشِيَّ النَّصْرَانِيَّ مَلِكٌ عَادِلٌ، فَاقْتَرَحَ عَلَى مَجْمُوعَةٍ مِنْ صَحَابَتِهِ الْكِرَامِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَنْ يُهَاجِرُوا إِلَى بِلَادِ النَّجَاشِيِّ، فَقَالَ ﷺ لَهُمْ: لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَإِنَّ بِهَا مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، وَهْيَ أَرْضُ صِدْقٍ، حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ.

وَحِكْمَتُهُ ﷺ وَبُعْدُ نَظَرِهِ فِي هَذَا الْقَرَارِ يَتَجَلَّيَانِ فِي أُمُورٍ عَدِيدَةٍ مِنْهَا أَنَّهُ ﷺ يُرِيدُ تَخْفِيفَ الْحِصَارِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَيَسْعَى إِلَى نَشْرِ الْإِسْلَامِ فِي بِلَادٍ بَعِيدَةٍ آمِنَةٍ تَكُونُ مَلَاذًا احْتِيَاطِيًّا لِضَمَانِ اسْتِمْرَارِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ وَانْتِشَارِهِ، وَيُشَجِّعُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْإِنْفِتَاحِ عَلَى الْعَالَمِ والتَّعَرُّفِ إِلَى ثَقَافَاتِ الشُّعُوبِ لِتَنْمُوَ شَخْصِيَّاتُهُمْ وَيُكَوِّنُوا تَجْرِبَةً ثَرِيَّةً خِصْبَةً فِي الْحَيَاةِ.

وَمِنْ مَوَاقِفِ حِكْمَةِ الرَّسُولِ ﷺ تَخْطِيطُهُ لِلْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَأَخْذُهُ بِكُلِّ أَسْبَابِ الْحِيطَةِ وَالنَّجَاحِ. فَقَدْ كَانَ ﷺ يَأْخُذُ بِالْأَسْبَابِ وَكَأَنَّهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ وَكَأَنَّهَا لَيْسَتْ بِشَيْءٍ. مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ ﷺ اخْتَارَ خَبِيرًا يَدُلُّهُ عَلَى الطَّرِيقِ، وَذَهَبَ مَعَ صَاحِبِهِ الصِّدِّيقِ فِي طَرِيقٍ مُعَاكِسَةٍ لِلطَّرِيقِ الْمَعْرُوفَةِ لِخِدَاعِ الْمُلَاحِقِينَ، وَمَكَثَا فِي غَارِ ثَوْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى تَهْدَأَ الْمُلَاحَقَةُ وَتَسْتَقِرَّ الْأَوْضَاعُ، وَجَعَلَ ﷺ مَنْ يَأْتِيهِ بِالْأَخْبَارِ وَمَنْ يَأْتِيهِ بِالطَّعَامِ وَمَنْ يَمْحُو آثَارَ مَسِيرِهِ وَصَاحِبِهِ.

– مَا أَذْكَى رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَا أَحْكَمَهُ!

– بَلَى يَا بُنَيَّ. وَيُرْوَى أَنَّ مِنْ أَوَائِلِ الْقَرَارَاتِ الْحَكِيمَةِ الَّتِي أَصْدَرَهَا ﷺ عِنْدَ اسْتِقْرَارِهِ بِالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ الْمُؤَاخَاةُ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ. وَلِلْمُؤَاخَاةِ فَوَائِدُ عَظِيمَةٌ، فَهْيَ تُزِيلُ الْحَوَاجِزَ بَيْنَ الضُّيُوفِ وَالْمُسْتَضِيفِينَ، وَتُمَتِّنُ الْعَلَاقَاتِ بَيْنَهُمْ، فَيُبْنَى الْمُجْتَمَعُ مُتَمَاسِكًا مُتَآزِرًا.

كَمَا يُرْوَى أَنَّهُ اتَّفَقَ ﷺ مَعَ أَهْلِ الذِّمَّةِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ عَلَى مُعَاهَدَةٍ أَشْبَهَ بِدُسْتُورٍ يُنَظِّمُ عَلَاقَتَهُمْ بِالْمُسْلِمِينَ، وَيَكْفُلُ لَهُمْ حُقُوقَهُمْ كَامِلَةً غَيْرَ مَنْقُوصَةٍ، وَيَقُومُ عَلَى الْمُسَاوَاةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ فِي الْحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ. وَكَانَ ﷺ حَرِيصًا عَلَى حِفْظِ حُقُوقِ الذِّمِّيِّينَ، فَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ ﷺ: أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ (خَصْمُهُ) يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَالْإِسْلَامُ يَا بُنَيَّ دِينُ السَّلَامِ. فَلَمْ يَكُنْ الرَّسُولُ ﷺ يَدْعُو إِلَى الْعُنْفِ وَلَا يُحَرِّضُ النَّاسَ عَلَى الْفَوْضَى، بَلْ كَانَتْ دَعْوَتُهُ دَعْوَةَ سَلَامٍ. فَكَانَ ﷺ فِي مَكَّةَ لَا يُجْبِرُ زُعَمَاءَ قُرَيْشٍ عَلَى الْإِسْلَامِ وَلَا يُكْرِهُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، بَلْ يُطَالِبُ بِالْحُرِّيَّةِ فِي دَعْوَةِ النَّاسِ. وَفِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، كَانَ الرَّسُولُ ﷺ وَصَحَابَتُهُ الْكِرَامُ يَتَعَايَشُونَ مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ بِسَلَامٍ وَتَسَامُحٍ وَعَدْلٍ مَا لَمْ يَنْقُضُوا بُنُودَ الْمُعَاهَدَةِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا. قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ" (البقرة 256). وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: "وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ" (الكهف 29).

فَالْمُسْلِمُ مُسَالِمٌ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا وَلَا يَعْتَدِي عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَلْجَأُ أَبَدًا إِلَى الْعُنْفِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ دِفَاعًا عَنِ النَّفْسِ وَالْعِرْضِ وَالْأَرْضِ. وَالْمُسْلِمُ الْحَقُّ يَدْعُو إِلَى اللهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَهُوَ مِثَالٌ يُحْتَذَى فِي كَرَمِ الْأَخْلَاقِ وَحُسْنِ التَّعَامُلِ مَعَ كُلِّ النَّاسِ عَلَى اخْتِلَافِ أَدْيَانِهِمْ. قَالَ ﷺ: الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ

النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ.

وَيُرْوَى أَنَّ شَيْخًا حَاقِدًا أَثَارَ فِتْنَةً بَيْنَ صَحَابِيٍّ مِنَ الْأَوْسِ وَصَحَابِيٍّ مِنَ الْخَزْرَجِ، فَتَخَاصَمَا وَتَنَازَعَا وَتَنَادَيَا! فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ الرَّسُولُ ﷺ غَاضِبًا فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ! اللهَ اللهَ! أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ أَبَعْدَ أَنْ هَدَاكُمْ اللهُ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَكْرَمَكُمْ بِهِ، وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمْ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ، وَاسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِنَ الْكُفْرِ، وَأَلَّفَ بِهِ بَيْنَكُمْ، تَرْجِعُونَ إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ كُفَّارًا؟ دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ. فَعَرَفَ الْقَوْمُ أَنَّهَا نَزْغَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ وَكَيْدٌ، فَنَدِمُوا وَبَكَوْا وَتَعَانَقُوا، ثُمَّ انْصَرَفُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ سَامِعِينَ طَائِعِينَ. فَانْظُرْ يَا عَبْدَ الرَّحْمَانِ إِلَى حِكْمَتِهِ وَسُرْعَةِ بَدِيهَتِهِ فِي التَّعَامُلِ الْمُنَاسِبِ مَعَ الْمَوَاقِفِ الْعَوِيصَةِ.

– بَلَى يَا جَدِّي، كَمَا أَسْتَنْتِجُ أَنَّ التَّفَاخُرَ بِالنَّسَبِ أَمْرٌ مَذْمُومٌ.

– أَحْسَنْتَ يَا بُنَيَّ، إِنَّ مَنْ يَفْتَخِرُ بِنَسَبِهِ أَحْمَقُ فَهُوَ لَمْ يَخْتَرْهُ، وَمَنْ يَفْتَخِرُ بِشَكْلِهِ أَوْ لَوْنِهِ أَخْرَقُ فَهُمَا لَيْسَا مِنْ صَنِيعِهِ، فَلَا دَخْلَ لِلْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ. وَإِنَّمَا يَحِقُّ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْتَدَّ بِأَخْلَاقِهِ الْحَمِيدَةِ وَإِنْجَازَاتِهِ النَّبِيلَةِ فَهْيَ نِتَاجُ قَرَارَاتِهِ وَاخْتِيَارَاتِهِ فِي الْحَيَاةِ.

وَمِنْ مَوَاقِفِ حِكْمَتِهِ الْفَذَّةِ وَبُعْدِ نَظَرِهِ ﷺ مَا كَانَ مِنْ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ. فَقَدْ جَعَلَ الرَّسُولُ ﷺ بِرَأْيِهِ السَّدِيدِ وَبَصِيرَتِهِ الثَّاقِبَةِ مِنْ هَذَا الصُّلْحِ طَرِيقًا إِلَى

فَتْحِ مَكَّةَ. إِذْ يَسَّرَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ اخْتِلَاطَ الْمُسْلِمِينَ بِالْكُفَّارِ فِي سَلَامٍ وَأَمَانٍ، وَتَيَسَّرَتْ الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ فِي جَوٍّ مِنَ الْهُدُوءِ وَالْاِطْمِئْنَانِ، فَأُعْجِبَ النَّاسُ بِسَمَاحَةِ الْإِسْلَامِ وَفَضَائِلِهِ، فَدَخَلُوا فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا. لَقَدْ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْحُدَيْبِيَةِ فِي أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ بَعْدَ عَامَيْنِ فَحَسْبُ دَخَلَ ﷺ مَكَّةَ فَاتِحًا فِي عَشَرَةِ آلَافٍ!

– مَا أَرْوَعَ حِكْمَةَ الرَّسُولِ ﷺ فِي التَّعَامُلِ مَعَ مُخْتَلَفِ الْمَوَاقِفِ. أَخْبِرْنِي يَا جَدِّي عَنْ شَجَاعَتِهِ ﷺ.

– الشَّجَاعَةُ يَا بُنَيَّ هِيَ الْإِقْدَامُ بِثَبَاتٍ وَتَعَقُّلٍ، دُونَ تَهَوُّرٍ أَوْ طَيْشٍ. وَمِنْ مَعَانِي الشَّجَاعَةِ الْقُدْرَةُ عَلَى الْاِعْتِرَافِ بِالْخَطَإِ وَطَلَبِ الْعَفْوِ. وَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ أَشْجَعَ النَّاسِ، يَعْتَرِضُ عَلَى الظُّلْمِ بِقَلْبٍ ثَابِتٍ وَيَقِفُ فِي وَجْهِ الظَّالِمِ دُونَ تَرَدُّدٍ أَوْ خَوْفٍ. وَكَانَ مِنْ دُعَائِهِ ﷺ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ.

وَفِي بِدَايَاتِ دَعْوَتِهِ ﷺ، وَقَفَ بِشَجَاعَةٍ عَلَى جَبَلِ الصَّفَا وَنَادَى مُشْرِكِي قُرَيْش وَأَعْلَنَ عَلَيْهِمْ دَعْوَةَ الْحَقِّ بِصَوْتٍ جَهْوَرِيٍّ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ بِإِيمَانٍ رَاسِخٍ وَجَنَانٍ ثَابِتٍ.

– بَلَى يَا جَدِّي، عِنْدَمَا قَالُوا لَهُ: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا.

– نَعَمْ يَا بُنَيَّ. وَبَعْدَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ وَاسْتِقْرَارِهِ بِهَا، حَدَثَ أَنْ سَمِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ صَوْتًا عَالِيًا ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَفَزِعُوا وَأَرَادُوا أَنْ يَعْرِفُوا

حَقِيقَةَ الْأَمْرِ، فَانْطَلَقُوا قِبَلَ الصَّوْتِ، وَإِذَا بِالنَّبِيِّ ﷺ عَائِدٌ إِلَيْهِمْ مُتَقَلِّدًا سَيْفَهُ رَاكِبًا فَرَسًا بِلَا سَرْجٍ، وَقَدْ بَادَرَ وَسَبِقَهُمْ وَحْدَهُ لِاسْتِطْلَاعِ الْأَمْرِ فِي شَجَاعَةٍ بَاسِلَةٍ وَفُرُوسِيَّةٍ نَادِرَةٍ. فَقَالَ لَهُمْ مُهَدِّئًا وَمُطَمْئِنًا: لَنْ تُرَاعُوا، لَنْ تُرَاعُوا. يَعْنِي لَا تَخَافُوا وَلَا تَفْزَعُوا.

وَيَصِفُ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ شَجَاعَةَ الرَّسُولِ ﷺ وَثَبَاتَهُ فِي الْغَزَوَاتِ فَيَقُولُ: كُنَّا إِذَا حَمِيَ الْوَطِيسُ وَاشْتَدَّ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدْنَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْهُ.

وَفِي غَزْوَةِ حُنَيْن أَعْجَبَتْ الصَّحَابَةَ الْكِرَامَ كَثْرَتُهُمْ، فَانْهَزَمُوا وَوَلَّوْا عَلَى أَعْقَابِهِمْ وَفَرَّ أَكْثَرُهُمْ، أَمَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَثَبَتَ ثُبُوتَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِخِ، بَلْ كَانَ مِنْ شَجَاعَتِهِ أَنَّهُ يُعْلِنُ عَنْ نَفْسِهِ بِقَلْبٍ لَا يَعْرِفُ الْخَوْفُ إِلَيْهِ سَبِيلًا! فَكَانَ ﷺ يَقُولُ بِصَوْتٍ جَهْوَرِيٍّ: أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِب، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطّلب! فَاجْتَمَعَ الْمُسْلِمُونَ حَوْلَهُ مِنْ جَدِيدٍ، وَثَبَتُوا بِثَبَاتِهِ ﷺ وَانْتَصَرُوا.

* * * * *

العدل والتّعاون

فِي الْأُسْبُوعِ الْمُوَالِي، قَالَ جَدِّي:

– الْعَدْلُ مِنْ مَعَانِيهِ الْإِنْصَافُ وَالْقِسْطُ، وَقَدْ حَثَّ الْإِسْلَامُ عَلَى الْعَدْلِ لِأَنَّهُ قِيمَةٌ أَسَاسِيَّةٌ فِي بِنَاءِ مُجْتَمَعٍ سَلِيمٍ مُتَوَازِنٍ.

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا" (النّساء 135)

وَقَالَ ﷺ: إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَانِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا.

وَقَالَ ﷺ: سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ إِلَى نَفْسِهَا فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ.

وَأَثْبَتَ النَّبِيُّ ﷺ مَسْؤُولِيَّةَ كُلٍّ مِنَّا فِي الْعَدْلِ وَحُسْنِ التَّصَرُّفِ فَقَالَ: أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ. فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ

مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْؤُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُ. أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ.

وَحَثَّ ﷺ النَّاسَ عَلَى التَّوَازُنِ فِي أُمُورِ حَيَاتِهِمْ وَمَنْحِ كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ دُونَ إِفْرَاطٍ وَلَا تَفْرِيطٍ. فَقَدْ أَقَرَّ ﷺ قَوْلَ سَلْمَان الْفَارِسِيّ لِأَبِي الدَّرْدَاء رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا. فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ.

وَكَانَ ﷺ عَادِلًا فِي بَيْتِهِ بَيْنَ زَوْجَاتِهِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ أَجْمَعِينَ. قَالَتْ عَائِشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ.

وَكَانَ ﷺ يَقْضِي بَيْنَ الْمُتَخَاصِمِينَ بِالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ نَاقَةً لِلْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ دَخَلَتْ بُسْتَانَ رَجُلٍ فَأَفْسَدَتْ فِيهِ. فَقَضَى ﷺ أَنَّ عَلَى أَهْلِ الْحَوَائِطِ حِفْظُهَا بِالنَّهَارِ، وَأَنَّ مَا أَفْسَدَتْ الْمَوَاشِي بِاللَّيْلِ ضَامِنٌ عَلَى أَهْلِهَا.

وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ الْأَمْوَالَ، فَقَالَ: يَا مُحمّد اِعْدِلْ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَيْلَكَ! وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ؟ لَقَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ.

وَمِنْ أَرْوَعِ مَوَاقِفِ عَدْلِهِ ﷺ قِصَّةُ الدِّرْعِ الْمَسْرُوقَةِ، إِذْ سَرَقَ صَحَابِيٌّ مِنَ الْخَزْرَجِ دِرْعَ صَحَابِيٍّ مِنَ الْأَوْسِ، وَشَهِدَ عَلَى السَّارِقِ صَحَابِيٌّ مِنَ الْأَوْسِ. فَاغْتَمَّ النَّبِيُّ ﷺ لِأَنَّ السَّارِقَ مُسْلِمٌ، فَسَيَشْمُتُ الْمُشْرِكُونَ وَالْمُنَافِقُونَ بِالْمُسْلِمِينَ، كَمَا سَتَشْتَعِلُ الْفِتْنَةُ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ مِنْ جَدِيدٍ بَعْدَ أَنْ أَطْفَأَهَا ﷺ بِحِكْمَتِهِ. وَإِذَا بِثَلَاثَةٍ مِنَ الْخَزْرَجِ يَأْتُونَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُونَ: إِنَّ السَّارِقَ لَيْسَ مِنَّا، بَلْ هُوَ يَهُودِيٌّ، فَابْعَثْ يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ يُفَتِّشُ عَنِ الدِّرْعِ فِي بَيْتِ الْيَهُودِيِّ. فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ يُفَتِّشُ الْبَيْتَ، فَوَجَدُوا الدِّرْعَ فِي الْحَدِيقَةِ! فَطَلَبَ الْخَزْرَجُ مِنْهُ ﷺ أَنْ يُبَرِّئَ صَاحِبَهُمْ، وَأَنْ يُوَبِّخَ الْأَوْسَ لِافْتِرَائِهِمْ الْبُهْتَانَ. فَصَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ الْمِنْبَرَ وَبَرَّأَ الْمُتَّهَمَ الْخَزْرَجِيَّ، وَلَامَ الْأَوْسَ وَأَنَّبَهُمْ، بَيْنَمَا الْيَهُودِيُّ يَقُولُ: لَمْ أَسْرِقْ يَا رَسُولَ اللهِ، وَلَكِنَّ الدِّرْعَ طُرِحَتْ عَلَيَّ.

وَفَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بِانْتِهَاءِ الْفِتْنَةِ، وَنَامُوا مُرْتَاحِينَ. لَكِنْ يَنْزِلُ جِبْرِيل عَلَى الرَّسُولِ ﷺ بِالْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ فَيَقُولُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، الْيَهُودِيُّ بَرِيءٌ، وَالْخَزْرَجِيُّ هُوَ السَّارِقُ. وَأَعْلَنَ الرَّسُولُ ﷺ الْحَقِيقَةَ عِنْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَبَرَّأَ الْيَهُودِيَّ وَأَثْبَتَ السَّرِقَةَ عَلَى الْمُسْلِمِ.

وَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ أَنَّ الْخَزْرَجِيَّ سَرَقَ الدِّرْعَ، وَحِينَ عَلِمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَرَفَ بِجَرِيمَتِهِ، أَرَادَ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنَ الدِّرْعِ، فَأَلْقَاهَا فِي حَدِيقَةِ الْيَهُودِيِّ، ثُمَّ ذَهَبَ

إِلَى ثَلَاثَةٍ مِنَ الْخَزْرَجِ وَأَقْنَعَهُمْ أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَيُخْبِرُوهُ بِأَنَّ الْيَهُودِيَّ هُوَ سَارِقُ الدِّرْعِ.

فَهَذَا الْمَوْقِفُ مِنْ أَرْوَعِ أَمْثِلَةِ الْعَدْلِ الْإِسْلَامِيِّ الَّذِي لَا يُحَابِي أَحَدًا وَلَا يَنْحَازُ إِلَّا لِلْحَقِّ.

وَقَدْ أَسَّسَ ﷺ قَاعِدَةً أَسَاسِيَّةً فِي إِقَامَةِ الْعَدْلِ فَقَالَ: الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ.

قُلْتُ مُنْبَهِرًا:

– مَا أَعْدَلَهُ ﷺ! فَحَدِّثْنِي يَا جَدِّي عَنْ تَعَاوُنِهِ مَعَ أَصْحَابِهِ الْكِرَامِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

– يَا بُنَيَّ، إِنَّ التَّعَاوُنَ بَيْنَ النَّاسِ يُفْضِي إِلَى مُجْتَمَعٍ مُتَمَاسِكٍ قِوَامُهُ التَّرَاحُمُ وَالتَّضَامُنُ. وَالتَّعَاوُنُ سَبَبٌ رَئِيسِيٌّ فِي اسْتِقْرَارِ الْمُجْتَمَعَاتِ وَازْدِهَارِهَا.

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: "وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ" (المائدة 2)

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا (وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ).

وَقَالَ ﷺ: مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ.

وَقَالَ ﷺ: اللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ.

وَلَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ مُنْدَمِجًا فِي مُجْتَمَعِهِ يُشَارِكُ فِي الْأَنْشِطَةِ الْاِجْتِمَاعِيَّةِ الْحَمِيدَةِ. أَتَذْكُرُ يَا بُنَيَّ قِصَّةَ اسْتِئْمَانِ قُرَيْشٍ الرَّسُولَ ﷺ عَلَى أَمْوَالِهَا وَوَدَائِعِهَا؟

– بَلَى يَا جَدِّي، وَقَدْ كَانَ مِنْ ظُلْمِ زُعَمَاءِ قُرَيْش أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْعَوْنَ جَاهِدِينَ فِي إِيذَاءِ الرَّسُولِ ﷺ فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ ﷺ مَشْغُولًا بِرَدِّ وَدَائِعِهِمْ وَأَمَانَاتِهِمْ إِلَيْهِمْ. فَمَا أَعْظَمَ خُلُقَهُ ﷺ!

– نَعَمْ يَا بُنَيَّ. لَقَدْ كَانَ أَمْرُ حِفْظِ أَمْوَالِ قريش وَوَدَائِعِهَا مَسْؤُولِيَّةً جَسِيمَةً. فَمَا الَّذِي جَعَلَ الرَّسُولَ ﷺ يَقْبَلُ هَذِهِ الْمَسْؤُولِيَّةَ الْكَبِيرَةَ بِصَدْرٍ رَحْبٍ؟ إِنَّهَا رَغْبَتُهُ فِي خِدْمَةِ مُجْتَمَعِهِ وَمُسَاعَدَةِ النَّاسِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ حِفْظَ أَمْوَالِهِمْ وَالْاِطْمِئْنَانَ عَلَيْهَا.

– أَسْتَنْتِجُ يَا جَدِّي أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ إِنْسَانًا فَاعِلًا فِي مُجْتَمَعِهِ يَمُدُّ يَدَ الْعَوْنِ لِلنَّاسِ وَيَحْمِلُ هُمُومَهُمْ. وَقَدْ قَرَّرْتُ عِنْدَمَا أَكْبُرُ أَنْ أَنْشُطَ فِي إِحْدَى الْجَمْعِيَّاتِ الْخَيْرِيَّةِ كَيْ أُسَاعِدَ النَّاسَ وَأَكُونَ عُنْصُرًا فَاعِلًا فِي الْمُجْتَمَعِ.

– أَحْسَنْتَ تَفْكِيرًا يَا عَبْدَ الرَّحْمَانِ. يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ تَكُونَ هِمَّتُهُ عَالِيَةً وَطُمُوحَاتُهُ خَيِّرَةً غَيْرَ أَنَانِيَّةٍ. وَمِنْ أَمْثِلَةِ مُشَارَكَتِهِ ﷺ فِي الْحَيَاةِ الْاِجْتِمَاعِيَّةِ أَنَّهُ شَارَكَ قَبْلَ بِعْثَتِهِ فِي حِلْفِ الْفُضُولِ، وَحِلْفُ الْفُضُولِ هُوَ اجْتِمَاعُ بَعْضِ قَبَائِلِ قُرَيْش فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَتَحَالُفُهُمْ عَلَى إِقْرَارِ الْعَدْلِ وَمُعَادَاةِ الظُّلْمِ وَرَدِّ الْحُقُوقِ إِلَى أَصْحَابِهَا. فَتَعَاهَدُوا أَلَّا يَجِدُوا بِمَكَّةَ مَظْلُومًا مِنْ أَهْلِهَا أَوْ مِنْ غَيْرِ

أَهْلِهَا إِلَّا قَامُوا مَعَهُ وَأَخَذُوا لَهُ حَقَّهُ مِمَّنْ ظَلَمَهُ. فَسَمَّتْ قُرَيْش ذَلِكَ الْحِلْفَ حِلْفَ الْفُضُولِ. قَالَ ﷺ: لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَدعان حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرُ النِّعَمِ، وَلَوْ دُعِيتُ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ.

قُلْتُ مُلَاحِظًا:

– أَسْتَنْتِجُ يَا جَدِّي أَنَّ الْإِسْلَامَ دِينٌ مُنْفَتِحٌ يَقْبَلُ الْأَفْكَارَ الْخَيِّرَةَ وَالْأَعْمَالَ الْمُفِيدَةَ حَتَّى وَإِنْ كَانَ مَصْدَرُهَا مِنْ خَارِجِ الْإِسْلَامِ.

– بَلَى يَا بُنَيَّ، الْإِسْلَامُ دِينُ الْخَيْرِ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَتَقَبَّلُ الْمُبَادَرَاتِ الْحَسَنَةَ الْخَيِّرَةَ مَهْمَا كَانَ مَصْدَرُهَا. وَالْإِسْلَامُ لَا يَتَعَارَضُ مَعَ الْإِنْسَانِيَّةِ بَلْ يَسْتَوْعِبُهَا. فَالْيَوْمُ الْعَالَمِي لِلتَّعْلِيمِ وَالْيَوْمُ الْعَالَمِي لِلْأُمِّ وَاليَوْمُ الْعَالَمِي ضِدَّ الْعُنْصُرِيَّةِ وَالْيَوْمُ الْعَالَمِي لِلتَّسَامُحِ وَالْيَوْمُ الْعَالَمِي لِلْحِفَاظِ عَلَى الثَّرْوَةِ الْمَائِيَّةِ كُلُّهَا أَفْكَارٌ إِنْسَانِيَّةٌ خَيِّرَةٌ لَا يَرْفُضُهَا الْإِسْلَامُ بَلْ يُبَارِكُهَا.

قَالَ ﷺ: إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ.

وَقَالَ ﷺ: بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا.

وَمِنْ أَمْثِلَةِ تَعَاوُنِ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ صَحَابَتِهِ الْكِرَامِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ تَشَارُكُهُمْ فِي بِنَاءِ أَوَّلِ مَسْجِدٍ وَهُوَ مَسْجِدُ قباء. فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُشَارِكُ فِي الْبِنَاءِ فَيَحْمِلُ اللَّبِنَاتِ وَيَضَعُهَا فِي مَكَانِهَا مِنَ الْبُنْيَانِ.

وَعِنْدَ حَفْرِ الْخَنْدَقِ، قَسَّمَ النَّبِيُّ ﷺ الصَّحَابَةَ الْكِرَامَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ مَجْمُوعَاتٍ، كُلُّ مَجْمُوعَةٍ تَحْفِرُ جُزْءًا مِنَ الْخَنْدَقِ. وَكَانَ ﷺ يُشْرِفُ عَلَى الْأَعْمَالِ وَيُشَارِكُ أَصْحَابَهُ فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ وَحَمْلِ التُّرَابِ.

* * * * *

نبيّ الرّحمة ﷺ

فِي الْأُسْبُوعِ الْمُوَالِي، قَالَ جَدِّي:

– إِنَّ الرَّحْمَةَ مِنْ أَنْبَلِ الْمَشَاعِرِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَأَجْمَلِهَا. فَالرَّحْمَةُ تَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يُحْسِنُ إِلَى الْآخَرِينَ وَيَرْفُقُ بِهِمْ وَيَحْلُمُ عَنْهُمْ. وَمِنْ مَعَانِي الرَّحْمَةِ الرَّأْفَةُ وَلِينُ الْجَانِبِ وَالشَّفَقَةُ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَمُشَارَكَتُهُمْ آلَامَهُمْ وَأَحْزَانَهُمْ. وَأَمَّا الْقَلْبُ الْقَاسِي الْغَلِيظُ الْخَالِي مِنَ الرَّحْمَةِ فَهُوَ أَشْبَهُ بِحَجَرٍ صَلْدٍ.

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: "وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ" (الأعراف 156)

وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: "وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ" (هود 90)

وَقَالَ تَعَالَى: "وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ" (فصّلت 34)

وَالنَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ الْمَبْعُوثُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، فَقَدْ وَهَبَهُ اللهُ قَلْبًا يَفِيضُ رَحْمَةً وَرِفْقًا وَحِلْمًا، فَهُوَ ﷺ يَرْجُو الْخَيْرَ لِلْخَلْقِ أَجْمَعِينَ. قَالَ تَعَالَى: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ" (الأنبياء 107)

وَقَالَ ﷺ: الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَانُ، اِرْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ.

فَمِنْ رَحْمَتِهِ ﷺ بِأُمَّتِهِ أَنَّهُ كَانَ إِذَا خُيِّرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ.

وَقَدْ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو مِنْ قَبِيلَةِ دَوْسٍ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنَّ دَوْسًا عَصَتْ وَأَبَتْ، فَادْعُ اللهَ عَلَيْهِمْ! فَدَعَا ﷺ قَائِلًا: اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا. ثُمَّ قَالَ لِلطُّفَيْلِ: اِرْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ فَادْعُهُمْ إِلَى اللهِ وَارْفُقْ بِهِمْ.

وَمِنَ الْأَمْثِلَةِ الْخَالِدَةِ لِرَحْمَتِهِ ﷺ مَا كَانَ مِنْ رِحْلَتِهِ إِلَى الطَّائِفِ وَمَوْقِفِهِ مَعَ قَوْمِ ثقيف الَّذِينَ آذَوْهُ وَتَطَاوَلُوا عَلَيْهِ. فَقَدْ سَأَلَتْ عَائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ! هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ فَقَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ (مَوْضِعٌ قَرِيبٌ مِنْ مَكَّةَ). فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّد! إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ (جَبَلَانِ حَوْلَ مَكَّةَ). فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا.

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ رَحِيمًا بِالضُّعَفَاءِ رَفِيقًا بِهِمْ. وَمِنْ ذَلِكَ رَحْمَتُهُ بِأَهْلِ الصُّفَّةِ وَرِفْقُهُ بِهِمْ، وَالصُّفَّةُ مَكَانٌ مُظَلَّلٌ فِي آخِرِ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ، وَأَهْلُ الصُّفَّةِ هُمْ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ مَنَازِلُ يَسْكُنُونَهَا، فَكَانُوا يَأْوُونَ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ الْمُظَلَّلِ فِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ. فَعِنْدَمَا اسْتَقَرَّ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، قَرَّبَ إِلَيْهِ أَهْلَ الصُّفَّةِ وَرَفَقَ بِهِمْ وَكَانَ يَزُورُهُمْ وَيُجَالِسُهُمْ. وَقَالَ ﷺ: أَبْغُونِي ضُعَفَاءَكُمْ، فَإِنَّكُمْ إِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ.

وَقَدْ كَانَتْ امْرَأَةٌ سَوْدَاءُ تُنَظِّفُ الْمَسْجِدَ، فَلَمَّا غَابَتْ سَأَلَ عَنْهَا النَّبِيُّ ﷺ فَقِيلَ: مَاتَتْ يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ ﷺ مُعَاتِبًا: أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي؟ دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهَا. فَأَتَى ﷺ قَبْرَهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا.

– أَسْتَنْتِجُ يَا جَدِّي أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا احْتِرَامُ عَامِلِ النَّظَافَةِ وَالرَّأْفَةُ بِهِ وَعَدَمُ احْتِقَارِهِ. فَعَمَلُهُ عَمَلٌ نَبِيلٌ، وَهُوَ يُسَاهِمُ فِي الْحِفَاظِ عَلَى الْبِيئَةِ وَتَجْمِيلِ الْمُحِيطِ.

– أَحْسَنْتَ قَوْلًا يَا عَبْدَ الرَّحمان. وَقَدْ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ يَشْكُو قَسْوَةَ قَلْبِهِ. فَقَالَ ﷺ: أَتُحِبُّ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ وَتُدْرِكَ حَاجَتَكَ؟ اِرْحَمْ الْيَتِيمَ وَامْسَحْ رَأْسَهُ وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ يَلِنْ قَلْبُكَ وَتُدْرِكْ حَاجَتَكَ. وَقَدْ حَثَّ ﷺ النَّاسَ عَلَى كَفَالَةِ الْيَتِيمِ، فَقَالَ: أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا (وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى).

وَمِنْ مَوَاقِفِ رِفْقِهِ بِالنَّاسِ وَحِلْمِهِ عَنْهُمْ ﷺ مَا كَانَ مِنَ الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي بَالَ جَهْلًا فِي الْمَسْجَدِ، فَثَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ لِيَنْهَرُوهُ، فَقَالَ لَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ: دَعُوهُ وَأَهْرِقُوا عَلَى بَوْلِهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ.

وَمِنْ أَمْثِلَةِ رَحْمَتِهِ ﷺ بِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ جَنَازَةً مَرَّتْ بِهِ وَهْوَ جَالِسٌ، فَقَامَ ﷺ احْتِرَامًا، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا جَنَازَةُ يَهُودِيٍّ. فَقَالَ ﷺ: أَلَيْسَتْ نَفْسًا؟

وَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا بُسْتَانًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا فِيهِ جَمَلٌ. فَلَمَّا رَأَى الْجَمَلُ النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ ﷺ فَمَسَحَ عَلَيْهِ حَتَّى سَكَنَ، وَقَالَ: لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟ فَأَتَى فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ لَهُ ﷺ: أَفَلَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا؟ فَإِنَّهُ شَكَا لِي أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُومُ فِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ فَيُسْنِدُ ظَهْرَهُ إِلَى جِذْعٍ مَنْصُوبٍ فِي الْمَسْجِدِ فَيَخْطُبُ فِي النَّاسِ، فَصَنَعَ لَهُ صَحَابِيٌّ مِنْبَرًا. فَلَمَّا وَقَفَ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ، حَنَّ الْجِذْعُ وَأَنَّ لِفِرَاقِهِ. فَنَزَلَ ﷺ مِنَ الْمِنْبَرِ وَأَقْبَلَ عَلَى الْجِذْعِ يُرَبِّتُ عَلَيْهِ وَيَمْسَحُ بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ عَلَيْهِ، ثُمَّ احْتَضَنَهُ حَتَّى سَكَنَ، وَكَلَّمَ ﷺ الْجِذْعَ فَخَيَّرَهُ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ شَجَرَةً مُثْمِرَةً فِي الدُّنْيَا لَا تَفْنَى حَتَّى قِيَامِ السَّاعَةِ وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ فِي الْجَنَّةِ، فَاخْتَارَ الْجِذْعُ أَنْ يَكُونَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْجَنَّةِ. وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ يَبْكِي وَيَقُولُ:

يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ! الْخَشَبَةُ تَحِنُّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ شَوْقًا إِلَيْهِ، أَوَ لَيْسَ الرِّجَالُ الَّذِينَ يَرْجُونَ لِقَاءَهُ أَحَقُّ أَنْ يَشْتَاقُوا إِلَيْهِ ﷺ؟

– مَا أَجْمَلَ رِفْقَ النَّبِيِّ ﷺ بِالنَّاسِ وَحِلْمَهُ عَنْهُمْ! وَمَا أَجْمَلَ رَحْمَتَهُ ﷺ! لَقَدْ شَمِلَتْ الْإِنْسَانَ وَالْحَيَوَانَ وَحَتَّى النَّبَاتَ! فَرَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ دُعَاةِ الرِّفْقِ بِالْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ أَيْضًا! أَسْتَنْتِجُ يَا جَدِّي أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَكُونَ رَفِيقًا بِالْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتَاتِ وَلَا أُؤْذِيهَا، فَهِيَ شَكْلٌ مِنْ أَشْكَالِ الْحَيَاةِ عَلَى كَوْكَبِ الْأَرْضِ، وَهِيَ ثَرْوَةٌ بِيئِيَّةٌ وَعُنْصُرٌ مِنْ عَنَاصِرِ جَمَالِ الْحَيَاةِ وَمَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ رَوْنَقِهَا وَبَهَائِهَا.

– أَحْسَنْتَ فَهْمًا يَا بُنَيَّ. أَتَعْلَمُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ عَنْ امْرَأَةٍ دَخَلَتْ النَّارَ لِأَنَّهَا عَذَّبَتْ هِرَّةً؟ إِذْ حَبَسَتْ الْمَرْأَةُ الْهِرَّةَ فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ الْقِطَّةُ الْمِسْكِينَةُ هُزَالًا. كَمَا أَخْبَرَ ﷺ عَنْ امْرَأَةٍ دَخَلَتْ الْجَنَّةَ لِأَنَّهَا سَقَتْ كَلْبًا يَلْهَثُ عَطَشًا.

– إِذَنْ فَالرَّأْفَةُ بِالْحَيَوَانَاتِ وَالرِّفْقُ بِهَا مِنْ أَسْبَابِ دُخُولِ الْجَنَّةِ. سُبْحَانَ اللهِ!

– سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ. بَلْ إِنَّ رَحْمَةَ النَّبِيِّ ﷺ شَمِلَتْ حَتَّى الْجَمَادَ، يَقُولُ ﷺ عَنْ جَبَلِ أُحُدٍ: إِنَّ أُحُدًا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ.

وَلِلرَّسُولِ ﷺ مَوَاقِفُ جَلِيلَةٌ خَالِدَةٌ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ. أَتَذْكُرُ يَا عَبْدَ الرَّحْمَانِ عِنْدَمَا حَدَّثْتُكَ عَنْ إِيذَاءِ الْمُشْرِكِينَ لِلرَّسُولِ ﷺ إِيذَاءً شَدِيدًا؟ حَسْبَ رَأْيِكَ مَا الَّذِي سَيَفْعَلُهُ بِهِمْ عِنْدَمَا يَدْخُلُ مَكَّةَ عَزِيزًا مُنْتَصِرًا؟

– رُبَّمَا يُعَاقِبُهُمْ أَوْ يَسْجُنُهُمْ، أَوْ رُبَّمَا يَنْفِيهِمْ خَارِجَ مَكَّةَ جَزَاءَ مَا اقْتَرَفُوهُ مِنْ ظُلْمٍ وَعُدْوَانٍ، أَوْ يَلُومُهُمْ عَلَى الْأَقَلِّ وَيُعَاتِبُهُمْ وَيُذَكِّرُهُمْ بِمَسَاوِئِهِمْ!

– لَقَدْ أَصْدَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَفْوًا عَامًّا شَامِلًا عِنْدَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَفِي هَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ يَوْمِ النَّصْرِ الْعَزِيزِ وَالْفَتْحِ الْمُبِينِ، دَخَلَ ﷺ مَكَّةَ عَلَى نَاقَتِهِ وَهُوَ خَافِضٌ رَأْسَهُ تَوَاضُعًا للهِ. وَقَدْ أَخَذَتِ الْحَمَاسَةُ أَحَدَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ فَهَتَفَ: الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ! فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ مُصَحِّحًا: بَلْ الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَرْحَمَةِ. حَتَّى أَنَّ أَبَا سُفْيَان وَقَدْ كَانَ مِنْ أَلَدِّ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ لَمْ يَتَمَالَكْ نَفْسَهُ أَمَامَ عَظَمَةِ الْخُلُقِ النَّبَوِيِّ فَقَالَ مُقِرًّا: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، مَا أَوْصَلَكَ وَأَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ!

فَهَا نَحْنُ يَا بُنَيَّ نَتَحَدَّثُ عَنْ سِيرَةِ الصَّادِقِ الْأَمِينِ ﷺ مُنْذُ أَسَابِيعَ، لَكِنْ كُلُّ حَدِيثِنَا غَيْضٌ مِنْ فَيْضِ أَخْلَاقِهِ ﷺ وَشَمَائِلِهِ. فَسِيرَتُهُ النَّبَوِيَّةُ الشَّرِيفَةُ مَعِينٌ رَقْرَاقٌ لَا يَنْضَبُ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الشَّمَائِلِ.

أَطْرَقْتُ مُفَكِّرًا فِي سِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ، مُنْبَهِرًا بِشَخْصِيَّتِهِ الْعَظِيمَةِ، عَازِمًا أَنْ يَكُونَ قُدْوَتِي وَأُسْوَتِي. ثُمَّ رَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا بِجَدِّي تَذْرِفُ عَيْنَاهُ دَمْعًا حَارًّا. فَتَسَاءَلْتُ مُحْتَارًا:

– مَا يُبْكِيكَ يَا جَدِّي؟

– إِنَّهَا دُمُوعُ الشَّوْقِ وَالْحَنِينِ لِلصَّادِقِ الْأَمِينِ ﷺ يَا عَبْدَ الرَّحْمَانِ. أَتَعْلَمُ أَنَّهُ ﷺ اشْتَاقَ إِلَيْنَا؟ فَقَدْ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ لِلصَّحَابَةِ الْكِرَامِ: وَدِدْتُ أَنِّي لَقِيتُ

إِخْوَانِي. فَقَالَ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ: أَوَ لَيْسَ نَحْنُ إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ ﷺ: أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَلَكِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِي وَلَمْ يَرَوْنِي.

ثُمَّ مَسَحَ جَدِّي دُمُوعَهُ وَتَمَالَكَ نَفْسَهُ، وَقَالَ مُبْتَسِمًا:

– أَرْجُو مِنَ اللهِ أَنْ يَجْمَعَنَا بِهِ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ. وَسَلْوَانَا فِي حَدِيثِهِ الْمُفْرِحِ الْبَهِيجِ إِذْ قَالَ ﷺ: الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ. فَلْنُحِبَّ الرَّسُولَ ﷺ مِنْ كُلِّ قُلُوبِنَا عَسَى أَنْ نَلْقَاهُ عَلَى الْحَوْضِ فَنَشْرَبَ مِنْ يَدِهِ الشَّرِيفَةِ شَرْبَةً لَا نَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَنَجْتَمِعُ مَعَهُ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ بِإِذْنِ اللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ. وَدَلِيلُ حُبِّنَا لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنْ نَهْتَدِيَ بِهُدَاهُ وَنَتَمَسَّكَ بِسُنَّتِهِ وَنَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِ الْحَمِيدَةِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا" (الأحزاب 21)

وَقَالَ ﷺ: أَقْرَبُكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا.

وَالْآنَ أَخْبِرْنِي يَا عَبْدَ الرَّحْمَانِ هَلْ تُحِبُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟

هَتَفْتُ مُنْشَرِحًا:

– بَلَى يَا جَدِّي! لَقَدْ صِرْتُ أَعْشَقُهُ، وَقَرَّرْتُ أَنْ يَكُونَ قُدْوَتِي وَأُسْوَتِي، فَسَأَعْمَلُ عَلَى التَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِهِ الْكَرِيمَةِ وَخِصَالِهِ النَّبِيلَةِ. وَعِنْدَمَا أَكْبُرُ سَأَقْرَأُ الْكَثِيرَ مِنَ الْكُتُبِ عَنْ سِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ لِأَسْتَفِيدَ مِنَ الدُّرُوسِ الْعَظِيمَةِ وَالْعِبَرِ الْجَلِيلَةِ.

* * * * *

الفهــرس

مقدّمة المؤلّف 3

مقدّمة 7

التّواضع والصّدق والأمانة 11

الحياء والوفاء 21

القناعة والكرم 27

الصّبر والتّفاؤل 32

الحكمة والشّجاعة 42

العدل والتّعاون 50

نبيّ الرّحمة ﷺ 57